آ. أ. ريتشاردز

فلسفة البلاغة



ترجمة :

سعيد الغانمي

د. ناصر حلاوي





أفريقيا الشرق

الوصول إلى الحقيقة يتطلب إزالة العوائق
التي تعترض المعرفة، ومن أهم هذه العوائق
رواسب الجهل، وسيطرة العادة، والتبجيل المفرط
لمفكري الماضي
أن الأفكار الصحيحة يجب أن تثبت بالتجربة

روجر باكون

حصريات مجلة الابتسامة
** شهر فبراير 2016 **
WWW.IBTESAMH.COM

التعليم ليس استعدادا للحياة ، إنه الحياة ذاتها
جون ديوي
فيلسوف وعالم نفس أمريكي



فلسفة البلاغة

هذه هي الترجمة الكاملة لكتاب:
The Philosophy of Rhetoric,
I. A. Richards:
Oxford University Press, 1963

المؤلف ـ آيفور أرمسترونغ ريتشاردز
عنوان الكتاب
فلسفة البلاغة
ترجمة:
سعيد الغانمي
د. ناصر حلاوي

رقم الإيداع القانوني : 1999 / 1035
ردمك 0-205-25-9981

أفريقيا الشرق ـ المغرب
159 مكرر شارع يعقوب المنصور ـ الدار البيضاء
الهاتف : 04 95 25 022 -13 98 25 022 ـ فاكس: 80 00 44 022

أفريقيا الشرق ـ بيروت ـ لبنان
ص. ب. 3176 - 11

آيفور أرمسترونغ ريتشاردز

فلسفة البلاغة

ترجمة :

سعيد الغانمي

د. ناصر حلاوي

أفريقيا الشرق

مقدمة الترجمة

إذا كان التأسيس الأول للبلاغة الغربية قد قام لدى أرسطو على فكرة الإقناع والتأثير، فإن التأسيس الثاني لها، عند ريتشاردز، في كتابه هذا «فلسفة البلاغة»، الصادر عام 1936، قد قام على نقض هذه الفكرة، والاعتقاد بأن وظيفتها ينبغي أن تكون دراسة لطرق سوء الفهم في التوصيل اللغوي. وبذلك قرر ريتشاردز أن يكون في قطيعة مع المقاربات البلاغية القديمة التي انتعشت منذ القرن السابع عشر، ليدشن أول مشروع لتحديث البلاغة سيتأثر بعد عقود باهتمام الباحثين في اللسانيات والسيمياء والاتصال.

كان ريتشاردز يرى أن الحجر الأساس الذي يقوم عليه سوء الفهم هوما يسميه بخرافة المعنى الخاص، أي الاعتقاد بأن للكلمة أو المفردة معنى ثابتا مستقرا بصرف النظر عن السياق أو الاستعمال، تماما كما أن لكل إنسان اسمه الخاص الملازم له.

انتقد ريتشاردز هذا التصور انتقادا لاذعا، وذهب إلى أن الكلمة المفردة ليس لها معنى في ذاتها، بل هي تستمد معناها مما يجاورها من كلمات اخرى حاضرة في السياق أو غائبة عنه. يقول : «إن الكلمة المفردة التي تأتي معزولة عن بقية الكلمات المنطوقة أو المفترضة، ليس لها معنى في ذاتها، شأنها شأن أية رقعة ملونة في لوحة لا تكتسب

حجما أو مساحة ما لم توضع في إطار معين». لقد كان خطأ البلاغيين السابقين عليه، في رأي ريتشاردز أنهم «ينبشون النار من الأعلى» فتحترق أيديهم بنبشها. وتتفق هذه الفكرة مع ما ستطوره اللسانيات، بتأثير من مدرسة دي سوسير حول انتظام الكلمات في نوعين من العلاقات هما العلاقات التتابعية paradigmatic ، أي ارتباط الكلمات المتجاورة في نص معين، والعلاقات التبادلية syntagmatic، أي علاقات الغياب التي تتبادل بها الكلمة مع بقية الكلمات في الموقع الواحد.

و ليس من شك في أن البلاغة العربية كانت قد شهدت بذور هذه النظرية في الثورة البلاغية التي أعلنها عبد القاهر الجرجاني، حين ذهب إلى ما يقرب من ذلك بقوله : «اتضح، إذن، اتضاحا لا يدع للشك مجالا أن الألفاظ لا تتفاضل من حيث هي ألفاظ مجردة، ولا من حيث هي كلم مفردة، وأن الألفاظ تثبت لها الفضيلة وخلافها في ملائمة معنى اللفظة لمعنى التي تليها أو ما أشبه ذلك مما لا تعلق له بصريح اللفظ. ومما يشهد لذلك أنك ترى الكلمة تروقك في موضع، ثم تراها بعينها تثقل عليك وتوحشك في موضع آخر».

لكن رد الفعل الأول ضد هذه النظرية كان عنيفا، فصارت التهم تتوالى على ريتشاردز، لأن نفي أن يكون للكلمة المفردة معنى، وتواقف معاني الكلمات على بعضها، يعني لدى خصومه استحالة الوصول إلى المعنى، إلا من خلال التخمين الذي لا يقين فيه، واستحالة كل نقد أيضا. واستبق ريتشاردز ناقديه مصرحا : «الاستدلال والتخمين ! وهل في التأويل غير ذلك ؟ كيف نصل إلى فكر الكاتب أو المتكلم دون استدلال وتخمين ماهرين ؟ أعتقد أن هذه أفضل طريقة لنبش النار من الأعلى».

واضح أن مفهوم التخمين، كما يراه ريتشاردز، ليس سوى نواة أولى لما يسميه ديريدا لاحقا بالأثر. ويعرف القارئ أن ديريدا حصد من التهم مثلما حصد ريتشاردز.

الموضوعة الأخرى المهمة في هذا الكتاب هي تقسيم ريتشاردز الاستعارة إلى حامل vehicle و محمول tenor. وتعود شرارة هذا التقسيم في البلاغة الأوربية إلى الدكتور جونسن الذي ينقل عنه ريتشاردز رأيه في انطواء الاستعارة على «فكرتين في فكرة واحدة». أما في البلاغة العربية، فقد قسم البلاغيون العرب الاستعارة إلى مستعار له ومستعار منه قبل ذلك بقرون. غير أن ريتشاردز دفع مقولة جونسن إلى غاياتها القصوى، فنفى أن تكون الاستعارة محصورة باللفظ، أو مجرد استبدال شكلي للكلمات. يقول : «تلاحظ النظرية التقليدية أنماطا قليلة من الاستعارة، وتحصر المصطلح على بعض هذه الأنماط، ولذلك فهي تجعل الاستعارة مسألة لفظية، مسألة تحويل أو استبدال للكلمات، في حين أنها في الأساس استعارات وعلاقات بين الأفكار. إنها عملية تبادل بين النصوص. فالفكر استعاري يعمل بوساطة المقارنة، ومنها تنبثق الاستعارات في اللغة». هكذا تكون الاستعارة أساس عمل الفكر نفسه، لا مجرد تشكيل لعوب على سطح اللغة. لأن العلاقة بين المحمول والحامل في داخل الاستعارة الواحدة هي نفسها علاقة استعارية. لقد أوضح ريتشاردز وأوغدن في كتابهما المشترك «معنى المعنى»، ماسمياه يومئذ بالمثلث الدلالي وزواياه الثلاث المتمثلة في الشيء والمفهوم واللفظ، وأبرزا أن العلاقة بين اللفظ والشيء علاقة اعتباطية، برغم أنهما معا يرتبطان بالمفهوم. وهذه دون شك قضية أولتها المدارس اللغوية ما بعد سوسير، اهتماما بالغا. لكن ريتشاردز في «فلسفة البلاغة» يمضي إلى ما هو أبعد من ذلك، لأن الاعتباطية لم تعد

بين اللفظ والشيء فقط، بل هي أيضا بين الحامل والمحمول في داخل اللفظ نفسه، ومن هنا يأتي انشقاق الاستعارة وتملصها الدائم. ومن هنا أيضا تكون الاستعارة كلية الحضور، لا ينجو منها كلام أو نص.

وحين ترتفع الاستعارة من أفق النص اللغوي في مستواه الواضح البسيط إلى مدار الفكر الفلسفي الملتبس، تصبح اللغة بكاملها جهازا من الاستعارات الخفية المتنكرة تحت قناع الحقائق. بعبارة متأخرة على تفكير ريتشاردز، فإن الاعتباطية ليست بين الدال والمدلول، كما هي لدى سوسير وأتباعه، بل هي في الأساس، في انشقاق الدال نفسه إلى أكثر من مدلول، كما سيتضح فيما بعد في استراتيجية التفكيك.

من الطبيعي أن الفكر المشبع بروح المحافظة عام 1926، لم يستطع احتمال هذه الآراء، ولذلك فقد وصمها بالهاشمية وأحاطها بسياج من الازدراء. لكن الآية سرعان ما انعكست، إذ لم تعد أعمال ريتشاردز النقدية الأخرى إلا مراجع تاريخية بحتة، منضوية تحت لواء النقد الجديد، بكل ما فيه من خدع وانخداعات، في حين صار هذا الكتاب يتصدر مراجع البلاغة الحديثة وكتب السيمياء ونظريات الاتصال. وليس أدل على ذلك من أن مصطلحات ريتشاردز في الحامل والمحمول ما زالت هي هي، تطالعنا في عدد لا حصر له من كتب البلاغة.

تربط البلاغة العربية بهذا الكتاب أكثر من رابطة فهو لا يسمح لنا أن نعيد النظر في تاريخ البلاغة الغربية وحسب. بل إنه، ولعل هذا أخطر ما فيه لنا كعرب، يعيد اكتشاف البلاغة العربية بما جرّبه البلاغيون العرب منذ القرن الرابع الهجري، نعني نظرية النظم وتقسيم الاستعارة إلى مستعار له ومستعار منه. وهما المقصودان بالحامل والمحمول. هل عرف ريتشاردز هذا من مصدر عربي؟ ذلك ما لا

تستطيع هذه المقدمة السريعة أن تقطع به. لكن المهم هو أن كتاب «فلسفة البلاغة» يرد إلينا بعض بضاعتنا، ويعيد لنا الثقة في تراثنا البلاغي القديم. إلا أنه من ـــ جهة أخرى ـــ يقطع الصلة بكل ما هو معياري ويرد إلى اللغة اكتفاءها الذاتي .

لقد كان عملنا في ترجمة هذا الكتاب عملا تعاونيا دؤوبا. فلم نكتف بمراجعة ترجمة كلٍّ منا وحسب، بل لم نتورع من سؤال الآخرين في بعض من جمل ريتشاردز العصية على الفهم أحيانا، وعلى الترجمة أحيانا أخرى.

سعيد الغانمي

المحاضرة الأولى

مدخل

تحاول هذه المحاضرات أن تبعث الحياة في موضوع قديم. ولست بحاجة، فيما أرى، إلى وصف الوضع الحالي للبلاغة. فهي اليوم أكثر القفار إيحاشا، وأقلها فائدة عند المبتدئ في اللغة الإنجليزية. فقد انحطت حتى صرنا نفضّل أن نطوّح بها إلى الجحيم، عن أن نكّلف أنفسنا عناءها، ما لم نجد سببا يُسعفنا على الاعتقاد بأنها يمكن أن تكون دراسةً تستجيب للحاجات الضرورية بنجاح.

وليس هناك مجال للشك في هذه الحاجات. فالبلاغة، كما سأبيّن، يجب أن تكون دراسة لحالات سوء الفهم وطرق معالجتها. ونحن في عراك مع سوء الفهم طوال حياتنا، ولسنا ندافع عن أية دراسة تصده عنا أو تزيله. بالطبع نحن لا نملك في الوقت الحاضر وسيلةً نقيس بها حجم خسائرنا ومقدارها في التوصيل كلَّ حين. وسيكون هدفاً من أهداف هذه المحاضرات أن تفكّر في بعض هذه الإجراءات التي لا بدَّ منها في محاولة تقدير الخسائر. ما مقدار اختلاف التوصيل الجيد عن التوصيل الردئ، وبكم طريقة يختلفان ؟ إن هذا السؤال كبير ومعقّد تصعب الإجابة عنه كما هو، لكن في مستطاعنا في الأقل أن نحاول الإجابة عن بعض جوانبه. وستكون إجابتنا وتوضيحاتنا هي موضوع «البلاغة» الذي ننوي إحياءه .

وعلى الرغم من أننا لا نستطيع أن نحصيَ خسائرنا في التوصيل، فإننا نستطيع أن نخمنّها، بل إنّ لدينا مخمّنين اختصاصيين ؛ أعني المعلمين والممتحنين الذين يتمثل عملهم في معرفة الأخطاء التي يرتكبها الآخرون في فهم ما يقرأونه أو يسمعونه وتشخيصها، مع محاولة أن لا يقعوا في ما يوضحونه من أخطاء، ما استطاعوا. أمّا المؤلف الذي يتفحص النصوص ويراجعها، وخاصة إذا كان يكتب في موضوع مثل الاقتصاد أو النظرية الاجتماعية أو السياسية أو النقد الأدبي، فيتمتّع بوضع حسن قياساً بمن يقيّمون الخسارة الحالية في التوصيل. فمن النادر أن يقرّ هذا المؤلف، بنزاهة، أن مراجعيه قد أصابوا مقصده، حتى حين يتفقون معه. قد تقول إنّ ذلك يتوقف على الكتاب السيئين الذين يتعاطون الكتابة برداءة وغموض. غير أنّ هؤلاء أكثر عددا من الكتاب الجيدين، ويؤدّون دورا أكبر في ذيوع الأفكار وإشاعتها في العالم.

يترتب على محاضر يخاطب جمهوراً في موضوع شائك كالبلاغة أن يكون دقيقاً جداً. فلا نفع في الاحتكام إلى السامع كما فعل «باركلي» Berkeley حين قال : «أرجو ممن يفكّر في هذه القضايا ألاّ يقف عند هذه العبارة أو تلك، أو عند هذا التعبير أو ذاك، بل أن يستخلص المعنى الذي أقصده من مجموع خطابي كله وفحواه، وأن يضع الكلمات جانبا ما أمكن، متأمّلا الأفكار المجردة في ذاتها».

المشكلة أننا نستطيع أن «نستخلص محتوى الخطاب وفحواه» من الكلمات فقط، ولا نستطيع أن نضع الكلمات جانباً. وسأتناول فيما يتعلق «بتأمل الأفكار المجردة في ذاتها»، في محاضرة قادمة تناولاً جيداً، الأفكار المختلفة عن «الفكرة» مقارنا بين مزاياها في دراسة

التوصيل. لقد كان باركلي مفتونا بالحديث عن هذه «الأفكار المجردة» وهذه «المفاهيم الصريحة العارية» كان مفتونا بـ «فصل العبارات والعوائق عنها». لكنّ الفكرة أو المفهوم، حين يتجرّدان من العوائق ولا يتقنّعان بأقنعة الكلمات يكونان أصعب منالا من الإمساك بأحد اللصوص العراة المصطبغين بالزيت، الذين يكتسحون قطارات الحمولة الهندية. فالفكرة في الحقيقة لا تعرف إلا بما تقوم بفعله، شأنها شأن الذرة والإشعاعات التي يعمل عليها عالم الفيزياء، إذ لا يمكن تشخيصها أو تحديد هويتها دون عبارة لغوية أو أية إشارة أخرى. ولباركلي، بالطبع، شكوكه : «يضع الكلمات جانبا ما أمكن، متأملا...». هذه الـ «ما أمكن» ليست شيئاً يُذكر، وهي لا تكفي لتحقيق الأهداف التي وضع باركلي ثقته فيها.

إذن لابدّ لنا أن نتأمل عن مزيد من القرب كيف تعمل الكلمات في الخطاب. لكن قبل الانغمار في تقسيمات أقلّ وضوحاً في هذا البحث الشامل، دعوني ألقِ نظرة، لبضع دقائق إلى الوراء، على المعالجة التقليدية للبلاغة، ففيها الكثير مما يفيدنا. تعلمون أنها تبدأ مع «أرسطو»، ويمكن القول إنها تنتهي مع «الأسقف واتلي» الذي كتب مقالاً عن البلاغة للموسوعة المتروبوليتانية التي خطط لها «كوليرج». ويمكنني القول أن «مقال في المنهج» لكوليرج، الذي كان مقدمة لتلك الموسوعة، قد وضع اللبنة الأساسية لمستقبل البلاغة أكثر من أي شيء آخر أعرفه في هذا الصدد.

كان واتلي كاتبا غزير الإنتاج، ولكنه يذكر الآن بسبب إحدى حكمه الساخرة. قال : «المرأة حيوان لا عقل له ينبش الجمر من الأعلى». لا أستشهد بهذا لكي أثير حفيظتكم ضد الأسقف، فأي رجل، إذا ما استُفزّ، لن يتورع عن المغامرة في مثل هذا التعميم

العشوائي الطائش. لكنني أود أن أثير حفيظتكم قبل كل شيء ضد طرائقه في معاملة موضوع هو فيه، كما يرى «جب»، أفضل الكتاب المحدثين. وثمة حكمة ساخرة أخرى لـ «واتلي» تصب في قلب مشكلتنا، وقد تجدونها مريحة أو مملوءة بالاحتمالات الوخيمة، إذا راق لكم ذلك. وها هي ذي : «لا يستهدف الوعاظ شيئاً بنبل أبداً، وهم مع ذلك يصيبونه». قد نتساءل ما الذي عناه الأسقف بذلك.

علينا أن نخمّن الطريقة التي استطاع بها واتلي أن يتقدّم متابعاً وموجزاً تاريخ البلاغة كما فعل. فهو يقول صادقاً أن «البلاغة ليست فرعاً من فروع الدراسة التي يمكننا أن نتعقب باهتمام تقدمها المتواصل من عصر إلى عصر». ثم يستمر في مناقشته إن كانت «البلاغة جديرة بالرعاية والاجتهاد» لكي يقرر بفتور أن ذلك ممكن إن لم تؤخذ بمعنى «فن الخطاب»، بل بمعنى «فن الفنون»، أي الحقل الفلسفي الذي يريد أن يتسيد القوانين الأساسية لاستعمال اللغة، وليست فقط مجموعة الحيل والخدع التي تلتمع بين الحين والآخر. هذا الادعاء ـــ ادّعاء أن البلاغة يجب أن تكون أعمق، ويجب أن تكون لها نظرة فلسفية واسعة في مبادئ «الفن» ـــ هو ذروة ما تصل إليه مقدمته.

مع ذلك لا وجود لشيء من هذا النوع في الأقسام التالية من المقال، ولا أي مقال آخر له فيما أعرف. فما أعطاناه واتلي هو مجموعة منظمة تنظيماً بارعاً من «القوانين» الحصينة حول أفضل أصناف الأشياء التي يجب قولها في مختلف مقامات الجدال، والترتيب الذي تقدم بها قضاياك وبراهينك وأمثلتك، بحيث تصل بها إلى نقطة تستخف بها بخصمك وتفحمه، وكيف تستميل الجمهور،

وما أشبه. وهي مسائل يصح القول أن أحداً لا يستطيع أن يتعلمها من مقال، ما لم يعرفها سلفاً. وفي أفضل الأحوال فإن المقال قد يكون مناسبة لمعرفة أنّ ثمة مهارة ينبغي تطويرها في الخطاب، لكنه لا يعلّم هذه المهارة ولا يستطيع تعليمها. ونستطيع أن نفتتح هذه المحاولة بالكلمات التي يسخر بها الأسقف من خصمه الدائم «جيرمي بنتام» حين يقول : «إنّ الخطة التي يقترحها للفضح الجاهز لأيّ برهان تشبه البرهان الذي يُخدع به الأطفال... وهو أن بالإمكان إمساك الطير بوضع الملح في ذيله. فالشكوك والصعوبات الموجودة في النظام المقترح تتعلق بتحديد أيّ البراهين مصنّف وأيّها غير صنف» وفي أيّ المواطن.

لماذا حصل ذلك ؟ لقد حصل ذلك كلّه عبر تاريخ البلاغة. ولكنني اخترتُ «واتلي»، لأنه يمثّل الميل. المتأصل في دراستها خير تمثيل. وحين يتقدّم من هذه الأسئلة الكبيرة المتعلقة بـ «دستور» الجدل إلى جزئيات الخطاب ــ تحت عنوان الأسلوب ــ يحدث الشيء نفسه. فبدلاً من البحث الفلسفي عن كيفية عمل الكلمات في الخطاب، نحصل على حفنة من النصائح التقليدية الساذجة نحو : كن واضحاً، ولا تكن حافاً، كن مرحاً، استعمل الاستعارات القريبة لا غير، احترم الاستعمال، لا تطنب، ومن ناحية أخرى لا تتوتر، تجنب الغموض، فضّل التعبير الأنيق، حافظ على الوحدة والتماسك ... الخ. ولستُ بحاجة إلى قراءة بقية النصائح، فنحن جميعا نعرف جيّداً ما يمكن أن يستخلصه القرّاء الصبورون من هذا الخليط من الوصايا، وجرّبنا جميعاً مدى إفادتها.

ما العيب في كل هذه المحاولات المألوفة جداً في مناقشة عمل الكلمات ؟ إنّ الكيفية التي تعمل بها الكلمات مسألة يهتم بها فضول

كل متكلم باللغـة بما لا مفرٌّ منه حتى تـأتي هذه التوافـه فتخنـق دفق اهتمامه. وأستطيـع أن أضع هذا الخطـأ وضعـاً أفضل متـذكراً استعـارة واتلي السـابقة، فأقول إن كلاً ما فعلـوه هو أنهـم نبشـوا النار من الأعلى. فبدلاً من معالجة مسألة كيف تعمل اللغة ككل معالجةً جادة، يفترضون أن لا وجود لشيء متعلق بها يمكن تعلمه عنهـا، وأنّ المشكلة هـي مجرّد تنظيـم قوى الكلمـات التي لا يرقى إليها شك بأفضل طريقة ممكنة. وبدلا من التسـاؤل والبحث عن مصادر الفعل الشـامل للكلمات، يتلاعبون بالتعميـمـات المتعلقة بآثارها، وهي تعميـمـات لا تقدم ولا تؤخر ما لم ننفذ إلى أُسسهـا العميقـة من طريق آخر.

وباختصار، فإنّ مفهومهم عن دراسة اللغة شاسع بصورة تثير الخيبة، أو هو مفهوم إجمالي macroscopic لا يخدم الفهم الصحيح، لا نظريـاً ولا عملياً، ما لم يتـممه بحث تـفصيلي microscopic، أو داخلي يسعى إلى الكشف عن بنية المعاني التي يتألف منها الخطاب، ولا يكتفي بكشف تأثيرات الأقسام الكبيرة المختلفة لهذه المعاني. وهؤلاء البلاغيـون يذكروننا بجهـود الكيميـاويين القدامى الذين أرادوا تحويل المعـادن الرخيصة إلى معـادن ثمينـة. وهي جهـود باءت بالفشـل لأنهم لم يحسبوا حساب البنى الداخلية التي نسمّيها بالعناصر.

لا يمكن لكاتب حديث في اللغة أن يتجنّب المقارنة التي أعقدها هنا. فلكي نحسب حساب الفهم وسوء الفهم، وندرس كفاية اللغة وشروطها، ينبغي أن نرفض، ولو إلى حين، أن تكون للكلمات معان محددة فقط، وأن يكون الخطاب مجرّد نظم لهذه المعاني، تماماً كما ينتظم الجدار من مجموع أحجاره.

وهكذا يجب أن نغيّر بؤرة تحليلنا ونحاول أن نفهم فهماً أعمق وأدقّ، وأن ننظر في بنى الوحدات الصغرى للمعاني، موضوع النقاش، والطرق التي تختلف بها هذه الوحدات حين تُرصف مع وحدات أخرى، وإذا كانت الاحجار لا تبالي، في مختلف الأغراض العملية، أين ترصف ومع أي شيء، فإن المعاني تبالي وتهتمّ بشدّة، ربّما أكثر من أي شيء آخر. فمن خواص المعاني أن تهتمّ بما يجاورها اهتماماً بالغاً، وهذا هو السبب، إلى حدٍّ ما، في المقصود من تسميتها «معانيَ»! فهي في ذاتها أشياء لا وجود لها، أي محض اختلاف وتجريد، وأشياء غير واقعية نخترها اختراعا إذا شئتم. لكننا لا نخترعه عبثا، بل لسبب. فهي تجنبنا أن ندخل في اعتبارنا الطريقة الخاصة في أنّ ما يفعله أي جزء من الخطاب إنما يفعله، في آخر المطاف، لأنّ الأجزاء الأخر من الخطاب المجاور، منطوقاً كان أو غير منطوق، وشروطه هي ما هو عليه. وأقول : في آخر المطاف، لأنّ عبارة : في آخر المطاف هنا تعني بعد لأيٍ طويل وغوص عميق. عدا ذلك فإننا على علم ببعض الثوابت التي تخفى عنّا هذه النسبية الشاملة، أو بعبارة أدق، تخفي تواقف المعاني بعضها على بعض. قد تبدو بعض الكلمات والجمل وكأنها تعني ما تعنيه إطلاقاً ودون قيد أو شرط، لكن ذلك يعود إلى أنّ الظروف والأحوال التي تحكم معانيها ثابتة لا تتغيّر، بحيث إننا نستطيع إغفالها. والأمر أشبه بما يبدو أنّ وزن سنتمتر مكعب من الماء شيء ثابت ومطلق بسبب ثبات الظروف المحيطة به، في حين نستطيع أن نتجاهل كتلة الأرض ونحن نزن رطلا من الشاي. وبالنسبة إلى الكلمات التي استقرت ظروفها، فإن للنظرة السائدة التي ترى أن لهذه الكلمات معاني ثابتة يمكن أن نتعلمها ونلاحظها، ما يسوّغها، فأكثر الكلمات حين تنتقل من سياق إلى آخر، تغيّر معانيها، وبطرائق كثيرة الاختلاف. ووظيفتها وفائدتها لنا قائمتان

على هذا التغيير. بل إنّ الخطاب العاديّ قد يعاني من التصلب والتعنت، إذا لم تغير الكلمات معانيها. فلاداعي إذن للشكوى حتى الآن. ونحن ماهرون مهارة خاقة في بعض حقول هذه التغيرات، ولا سيما حين تكون تمنت النوع الذي نسميه «استعارة».تغيرتأن مهارتنا تخفق، فتتعرض للتقلبتوالترقيع، وحين تخفق يبدأ سوء الفهم مع أنفسنا ومع الآخرين.

السبب الرئيس في سوء الفهم، كما سنرى، هو «خرافة المعنى الخاص» Proper Meaning Superstition، أي ذلك الاعتقاد الشائع - الذي تغذيه الكتب المدرسية المتخلفة ــــ بأن للكلمة معنى ثابتاً محدداً (هو مثالياً معنى واحد) مستقلاً عن شروط استعماله، بل إنه يتحكم في الاستعمال، وفي السبب الذي يجب أن يُقال من أجله. وهذه الخرافة إنما هي إقرار بنوع من الثبات في معاني بعض الكلمات. ولا تكون خرافة إلاّ حين تنسى (و هذا ما تفعله دائماً) أنّ ثبات معنى الكلمة ينشأ عن استقرارالسياقات التي تضفي عليها معناها. فالثبات في معنى الكلمات ليس شيئاً يجب افتراضه، بل شئ يجب تفسيره دائماً. وحين نجرّب تفسيراً معيّناً، فإننا نكتشف بالطبع أنّ هناك أصنافاً عديدة من الثبات، طالما أنّ هناك أصنافاً متعددة من السياقات المستقرة. وثبات معنى كلمة معينة،مثل كلمة سكّين knife يختلف عن ثبات كلمة كتلة mass في استعمـالها التقني. ويختلف كلا النوعين من الثبات عن ثبات كلـمات أخرى، مثل : حدث event، ودخول ingression، وجلَد endu-rance، واطرادrecurrent ، ومفعول به object. ربّما قيل أنّ الطريقة التي أقترحها في معالجة المعاني لها ما يشابهها في معالجة السيّد هوايتهد للأشياء. ولكن ما من شخص يهتمّ اهتمام باركلي ويقتنع كامل الاقتناع أن كذا هو كذا.

لقد اقترحت، وأنا أناقش الأبحاث الإجمالية والتفصيلية، أنّ مقاربة اللغة يمكن أن تستفيد شيئاً، وإن يكن ضئيلاً، من الطرق التي واجه بها الفيزياوي مشكلة الثوابت. غير أنّ المماثلات الأقرب، هي المماثلات الممكنة مع بعض الأنماط المرتبطة بعلوم الحياة. ونظرية التفسير هي دون ريب فرع من علم الحياة، لم يأخذ مداه في النمو، أو لم ينمُ نمواً صحيًا بعد. وقد يساعدنا تذكر ذلك على تجنب أخطاء الماضي، بما في ذلك المماثلات السيئة التي تقيّدُنا إذا تناولناها تناولا جديا. وبعض هذه المماثلات معروف مثل: المقاربة بين الشكل والمضمون، والمقابلة الأكثر تكافؤاً بين المادة والصورة. وهذه كلها استعارات مرذولة رثة، كتلك التي تجعل من اللغة لباسا للفكر.

أمّا نحن فنفضل أن نعامل المعنى وكأنه نبات ينمو، وليس وعاءً مملوءاً أو كتلة من الطين أخذت شكلها وانتهت. هذه نواقص واضحة، ولكنها، كما يبيّن تاريخ النقد، لم يتمّ تحاشيها. والجهود المتواصلة على تعديلها أو تخطيها ــ و«كروتشه» هو أحدث الأمثلة على ذلك ــ ليست بذات فائدة.

وإنّها لأكثر مكراً وتخريباً تلك المماثلات المسرفة في التبسيط التي قُدّمتْ تحت اسم الترابطية (associationism) أملاً في توضيح الطريقة التي تعمل بها اللغة والفكر أيضاً. فهما مشكلتان متداخلتان ومتشابهتان بحيث لا تمكن مناقشة إحداهما مناقشة مثمرة دون الأخرى. ينبغي أن نعيد صياغة تعريفهما، ونتفادى المشكلات الكبرى فيهما قبل ذلك، إذ هل أحتاج إلى القول أن اللغة والفكر شيئان مختلفان، وليسا شيئاً واحداً. سأسلم بضرورة ذلك ما دام السلوكيون يؤكدون أن «الفكر كلام ينقصه الصوت». وذلك هو المذهب الذي

أفضّل أن أهاجمه في هذه المحاضرات ضمنا، لأن المناقشة الصريحة تحتاج إلى وقت يمكن استثماره بأشياء أكثر فائدة. ولن أقول سوى أنني أعدّ أي مذهب يدمج ويوحّد بين الفكرة وحركة العضلات تفنيداً ذاتياً لنزعة الملاحظة التي تحض عليه. إنه بطولي وقدري. والتوحيد والدمج بين الفكر ونشاط الجهاز العصبي افتراض مقبول عندي، لكنه من السعة بحيث يستعصي تطبيقه. وقد ينبغي تركه حتى نعرف الكثير عن هذين الأمرين. وحينئذ قد يتم تطويره إلى نقطة يكون بها مفيداً. أمّا في الوقت الحاضر، فإن الدراسة ما زالت إلى حد كبير لا تمسّ الفكر إلا من خلال اللغة. ويمكننا أن نتلمس الفرق في أذهاننا بين التفكير بكلب والتفكير بقطّ. في حين أنّ عالم الأعصاب لا يستطيع ذلك. وحتى حين لا تكون هناك قطط أو كلاب، ولا نفعل شيئاً سوى التفكير، فإنّ الفرق بينهما يبقى قائماً محسوساً. فنحن نستطيع أن نقول (كلب) ونفكر بـ (قط).

على الرغم من ذلك يجب أن أناقش الترابطية بإيجاز. لأننا حين نسأل أنفسنا كيف تعني الكلمات ما تعنيه، فإنّ نظرية في سلسلة الأفكار المترابطة أو الصور المتلازمة تكون جواباً على ذلك. وما دمنا نرى أنّ هذه النظريات لا تتقدّم بنا مقدار شعرة، فإنها نظريات مخيّبة للآمال. ونحن جميعاً نعرف خلاصة هذه النظريات. ونتعلم ما تعنيه كلمة (قط) من رؤية قطّ حقيقي في الوقت الذي نسمع منه كلمة (قط)، فيرتبط ما نرى بما نسمع. ثمّ نسمع مرة أخرى كلمة (قط) فتتكوّن في أذهاننا صورة قط (لنقل إنها صورة بصريّة). هذه هي الكيفية التي تعني بها كلمة (قط) قطاً. ولا بدّ من أخذ الاعتراضات الواضحة الناشئة عن الفروق بين القطط بنظر الاعتبار. إذ تختلف صورة (قط) فارسي رمادي اختلافاً كبيراً عن

صورة (قط) عتابي متربص[1]. وكذلك اعتراضات من لم يتخيلوا ذلك من قبل. وبذلك يصير من الصعب الأخذ بهذه النظرية. فالصور الذهنية تتراجع إلى الخلف وتصير مجرّد دعائم لشئ ليس بالدقيق تماماً ــ هو الفكرة المكوّنة عن القط ــ يفترض اقترانه بكلمة (قط)، أكثر مما يفترض اقتران الصورة الذهنية بها أصلاً.

لقد تعرّضتْ هذه النظرية الكلاسيكية في المعنى لهجوم شديد من مختلف الجهات ولأكثر من قرن ــ من مواقع مختلفة اختلاف «كوليرج» عن «برادلي» و«باڤلوف» عن علماء نفس الصيغة (الغشطالت). وكردٍّ على ذلك، فقد اجتهدتْ في تطوير ذاتها مستمرةً نظرية «المنعكس الشرطي»، وتأثيرات فرويد. لستُ أقول إنها عاجزة، إذا ما عُدِّلتْ، عن تزويدنا بنظرية عملية في المعنى، لكنني في الحقيقة سأقدّم في المحاضرة القادمة، الخطوط العامة لنظرية في تأدية الكلمات للمعاني عند الترابطية متمثلة في أشهر روّادها. وحين أقول إن الترابطية بصيغتها البسيطة لا تفلح بما يكفي، بل هي أحياناً تشكّل عائقاً دون النجاح، فلستُ أريد إلاّ أن أذكركم بأن تجمع صور ذهنية مترابطة وأفكار خاصة بكلمة معينة في العقل، لا يجيب عن سؤالنا : كيف تعني الكلمة ؟ لأنّ هذا التجمع يحوّل السؤال إلى الصور الذهنية والأفكار. وبذلك يصير : كيف تعني الفكرة (أو الصورة الذهنية) ما تعنيه ؟ إذن فللإجابة عن السؤال الأول، علينا أن نخرج من إطار العقل لنبحث عن روابطه بسوى ذلك من الوقائع غير العقلية، أو إذا شئتم أن نوسّع كلمة (عقل). علينا أن نبحث عن الروابط بين الوقائع التي طرحتها الترابطية التقليدية- جانباً، وحين طرحتها جانباً فقد طرحت معها هذه المشكلة.

النقطتان المهمتان في نقاشنا هنا اثنتان :

الأولى، أن الترابطية العادية السائدة الفجة تقوم على استعارة مادية ساذجة وغير صائبة عن الانطباعات المنقوشة في العقل (إنّ القط يطبع صورة القط في العقل)، ثمّ ترتبط الانطباعات وتتألف في مجاميع مثل الذرات في الجزئيات. هذه الاستعارة لاتقدّم لنا تفسيراً مفيداً للإدراك أو التأمل، ولن نفطن أو نتحسب إلى أية مشكلة مهمة من مشكلات البلاغة ما لم نطورها.

الثانية، أن اللجوء إلى الصورة الفنية imagery كمكوّن لمعنى النطق قد أبطل في واقع الأمر جزءاً كبيراً من الجهود الجبارة التي بذلها أناس أكفاء منذ القرن السابع عشر لوضع البلاغة في الموضع المهمّ الذي تستحقه بين دراساتنا. ولأُقدّم لكم مثلا. ها هو «اللورد كَامس»، الذي كان قاضياً في محكمة إسكتلندا، والذي كان معروفاً بالفطانة، وقد أصبح فيماأرى، سخيف الرأي بحق.

في «هنري الخامس» (الفصل الرابع - المشهد الأول) يقول وليامز بغضب :

أيّ استياء بائس حقير تبعث في ملك جبار..
أهون عليك أن تحوّل الشمس إلى ثلج
من أن تهفّ وجهه بريشة طاووس.

يعلق اللورد كامس : «أن ريشة الطاووس، بصرف النظر عن جمالها، تتمّم الصورة. فالصورة الدقيقة لتلك العملية الخيالية لا يمكن أن تكتمل دون أن نتصوّر ريشة خاصة بعينيها، وإن المرء ليصاب بالحيرة حين يهمل هذا في الوصف». [عناصر النقد ص 272].

يوضح هذا، فيما أرى، ما الذي يصنعه هوس الاهتمام بالصورة الفنية لدى القارئ. فمن في العالم كلّه، بعيداً عن النظرية، تعروه الحيرة إن لم نحدّدْ صنف الريشة التي نهفّ بها وجه الشمس ؟ ولو أردنا أن نكون أسخف رأياً من مؤلفنا لتابعناه في نظريته، وسألنا هل هي ريشة طويلة أم قصيرة ؟ أو هل الشمس في كبد السماء أم في المغيب ؟ فالنظرية التي ترى أن اشارة شكسبير المحددة هي لإتمام الصورة، كما ذهب كامس، نظرية كلها خطأ وضلال بكلّ معنى الكلمة. لأنّ ما يؤديه الطاووس في هذا السياق هو أن يصرف النظر إلى ما يزيد في بلادة وغرور (الاستياء البائس الحقير من ملك جبار). فريشة الطاووس شيء يرضي الغرور. وقد قال هنري : «لو أن الملك رضي أن يفتدى، فلن يستطيع احترام كلمته لاحقا». ويقول وليامز : لن تَحترمَ كلمته لاحقاً ! ماذا تقول ؟ انفض ريشك زهوا ما استطعت، لكن ماذا سيؤثر ذلك في ملك ؟ !

أما لورد كامس في عام 1761، فيستمتع برفق، بجمال واكتمال صورة بديعة ودقيقة ومتميزة لريشة صنعها لنفسه، لكنه نسي، فيما يبدو، أنّ مغزى الفقرة كلّها يتمثل في إثارة مشهد يستحق الانتباه.

سأعود إلى لورد كامس في محاضرة لاحقة حين أناقش الاستعارة. فنظرياته عن سلاسل الأفكار والصور صيغة نموذجية من صيغ الترابطية في القرن الثامن عشر، الترابطية التي كان «ديفيد هارتلي» مبشّرها العظيم. وتشكل تطبيقات هذه النظريات على البلاغة دحضا لها. لذلك علينا أن نتخطى هذه النظريات. لكن مهما كانت مغلوطة، ومهما بدت نتيجتها غير معقولة في بعض الأحيان، فعلينا أن لاننسى أنها كانت البدايات والخطوات الأولى في مغامرة عظيمة

وجديدة، تلك هي محاولة تقديم تفسير مفصل لكيفية عمل اللغة، ومن خلال ذلك تطوير نظام التوصيل. فهذه المحاولات تحتاج أن نلتفت إليها بعين تنظر لها نظرة تمثل وعطف. وفي الحقيقة تستحيل قراءة هارتلي، مثلاً، دون عطف عميق وحبّ كبير ندرك بهما أية مهمة جسيمة كان يحاول أن يقوم بها، ليست فقط حين يكتب في خلاصة بحثه بكلمات تنمّ عن أفكار باحث نزيه : «ليس هذا بالبيان المكتمل المقنع لالتصاق الأفكار بالكلمات عن طريق التداعي، لأنّ المؤلف نفسه يعي أنه حديث عهد بهذه التأملات. ولعلّ من الصعب، إن لم يكن من المستحيل، أن نسبرَ غور الكلمات بالكلمات» [في الإنسان، ص 277]، بل أكثر حين يقول : «كلٌّ ما طرقه القدماء والمحدثون حول قوة «العادة» و«العرف» و«المثال» و«التربية» و«السلطة» و«العصبية» وأسلوب دراسة الكتب المدرسية والفنون المتأخرة..إلخ، يعمل وفق هذا المذهب، حتى كأنه أساس أُقيمَ عليه، وهو البناء الملحق به في مختلف الظروف. وإني لأرجو هنا أن أبدأ بأبسط الحالات، ثمّ أرتقى إلى الأصعب فالأصعب، وهكذا دواليك حتى أستنفد كلٌّ ما عرض لي في هذا الموضوع» [في الإنسان، ص67].

لم يكن الرجل الذي كتب ذلك «ينبش النار من الأعلى». قد لا يكون أسلوبه في بحث الموضوع كامل الإتقان، لكنه رأى ما كان بحاجة إلى رؤيته، فلا عجب أن يُكبِرَهُ «كوليرج» ويفضله على الآخرين فوراء تكوين المعاني وتحولاتها ـــ التي يجب أن ندرسها بالكلمات ومن خلالها - يقف ما يذكره هارتلي بصفته أساسا لها. وليس من المبالغ القول إن أبنية العوالم المختلفة كلها تقوم على أساس بناء المعاني عندنا. لقد بدأت، كما تتذكرون بباركلي الذي تقول فيه أبيات السيد «ييتس» الشهيرة :

لقد اصطفى الله باركلي الذي أثبت أن الأشياء كلّها حلم،
وأنّ خنزير العالم النفعي المحال،
و خنوصه الذي يبدو صلباً جداً،
لابدّ أن يختفيا لحظةَ يغيّر العقل موضوعه.

مهما كان ما ندرسه، فإننا ندرسه عبر تطور المعاني. معرفة هذا الشيء تحوّلُ بعض أجزاء هذه الدراسة المباشرة لأنماط النمو، والتفاعل بين المعاني إلى عمل ذي أهمية عظيمة. ولولاه لكانت مجرّد لعب فلسفي ضائع بالفروق. ولهذا فإنّ هذه الدراسة دراسة نظرية وحسب، يمكن أن تكون عملية. وإليكم المقطع الذي يكتشف فيه «هوبز» ما تعلّمه من أستاذه «بيكون» :

«إن غاية ما تصبو إليه الفلسفة هو أن تستثمر لصالحنا الجهود السابقة علينا، فنستخلص منها آثاراً مشابهة لآثار ما ندركه بعقولنا مثل المادة والقوة والصناعة، لتوضع في خدمة الحياة الإنسانية. فمجد العقل الحقيقي، حين يسيطر الإنسان على شئ صعب ومثير للشك، أو حين يكتشف حقيقة خفية، لا يثير فينا من الألم ما تثيره دراسة الفلسفة، ولا يطلب من الإنسان أن يعلّم ما يعرفه للآخرين، إذا اعتقد أن ذلك سيكون الفائدة الوحيدة من عمله. إنّ غاية المعرفة قوة، وإنّ استخدام النظريات (التي تفيد علماء الهندسة في معرفة الخواص) إنما هي لتأليف المشكلات. وأخيراً فإن التأملات كلها إنما وجدت لأداء فعل ما، أو شئ ما».

سأستمر إذن في المحاضرة القادمة في استخدام نظريات تأليف المشكلات، دون أن ألحّ على كون هذه المشكلات هي تلك التي نقضي فيها، بدراية أو بغير دراية، حياتنا الواعية كلّها.

المحاضرة الثانية

أهداف الخطاب وأنماط السياق

زعمت في محاضرتي الأولى أن هناك مجالاً لبحث مفصّل ومنظّم ومتواصل في الكيفية التي تعمل بها الكلمات، يحلُّ محلاً الموضوع الذي فقدنا الثقة به وارتبط باسم البلاغة.

ومضيت إلى القول إنّ مثل هذا البحث ينبغي أن يكون ذا طابع فلسفي أو، إذا كنتم تترددون في استخدام هذه اللفظة كما هو الحال معي، إن مثل هذا البحث ينبغي أن يتحمل مسؤولية نقد فرضياته نفسها، وأن لا يقبلها جاهزة من دراسات أخرى إلا بمقدار ما تكون عونا له.

كيف تعني الكلمات ما تعنيه ؟ سؤال لا يمكن أن نقبل مطمئنين إجابة له، بصفتها هبة من هبات الفطرة السلمية، هذا النمو الغريب، أو إجابة يكفلها أو شهد لها علم النفس مثلا.. طالما أن العلوم الأخرى تستخدم الألفاظ نفسها، وعلى نحو لا يقلّ تضليلاً عندما تواجه نفسها بهذه المشكلات.

والنتيجة، أن بلاغة جديدة، أو دراسة الفهم اللفظي أو سوء الفهم، يجب أن تأخذ على نفسها البحث في أنماط المعاني، لا على الصعيد الإجمالي، إذ نناقش تأثير الأنماط التنظيمية لأقسام الخطاب الواسعة والكبيرة، كما تفعل البلاغة القديمة، ولكن على

الصعيد التفصيلي باستخدام نظريات بناء وحدات المعاني التخمينية وعلاقاتها المتداخلة المتشابكة والشروط التي بوساطتها تظهر.

وفي البلاغة القديمة بالطبع الكثير الذي يمكن للبلاغة الجديدة أن تنتفع منه، والكثير أيضاً مما يمكن أن يكون مفيداً، إلى أن يستطيع الإنسان أن يغير طبيعته والكثير من عاداته في الجدل والنقاش والإثارة والخداع والاعتداء على الضعفاء والمداهنة.

إن ملاحظات أرسطو في المعالجة القضائية للشهادة المأخوذة قسراً لسوء الحظ ليست غير ذات قيمة في الكثير من أجزاء العلم المعاصر.

ومن موضوعات البلاغة القديمة العامة موضوع واحد وثيق الصلة بدراستنا. فمن الواضح أن البلاغة القديمة ثمرة الجدل والمناظرة ؛ وقد تطورت على أساس أنها بسط لمبادئ الدفاع والإقناع فهي إذن نظرية المماحكات اللفظية الكلامية. وكان الدافع إلى النزاع والخصومة هو الغالب عليها، وما تستطيع البلاغة القديمة أن تعلمنا إياه هو ذلك التأثير الضيق الأعمى الذي كان لذلك الاهتمام... أعني اهتمامات المتجادلين أنفسهم ومنافعهم. والإقناع هدف واحد فقط من أهداف الخطاب. لكنها تتجاوز ذلك إلى أهداف أخرى ولاسيما الشرح والتفسير (Exposition)، وهو هدف معين في عرض وجهة نظر لفحصها ودرسها، وليس غرضه إقناع الجمهور بالموافقة على أمر ما أو فعل شيء ما.. إن مقالات العروض والمراجعات وأعمدة المراسلة التي تحفل بها المجلات العلمية الرصينة لخير مكان لمتابعة هذا الشيء على نحو حيوي ومثير.

وليس من غير المستحسن لأية محاولة تفسير أو شرح، ولا سيما المتعلقة للجدل والخصومات التي سأعود إليها بعد قليل، أن تدرك كم هو سهل لحافز النزاع والخصومة أن يحجب عنا الحقيقة ويجعلنا ننظر إلى كلمات الآخرين بالطريقة التي نستطيع بسهولة أن نتغلب عليه.

أستطيع أن أشير إلى مثل هذا السلوك، ولنسمّه السلوك الدفاعي إذا شئتم، بنموذج صغير من أحد الكتب الصغيرة التي حاول فيها رجال القرن التاسع عشر أن يصلحوا البلاغة. وهذا النموذج مستقًى من كتاب بنيامين همفري سمارت الموسوم بـ (المنطق العلمي). وهو كتاب استُخدم لعقود من السنين في ثانويات البنات في منتصف القرن التاسع عشر. وهو كتاب منسي الآن تماماً. يناقش سمارت أسلوب الشرح، وقد سرد عددا من الأخطاء التي ترتكب بشكل عام. ثم جاء إلى«الخطأ العاشر وينبغي تجنبه وهو نسيان القضية الأصلية (proposition)» ويمضي إلى القول «وبشأن هذا الخطأ يكفي المثل الآتي..قيل عن الغضب إنه جنون مؤقت. وأكثر الناس عرضة له أقلهم فهما وإدراكاً. ومن الملاحظ أنه عندما يكون الطرف الآخر في المناقشة على خطأ يسعى إلى إصلاح ما ينبغي إصلاحه عن طريق الحجة بالعنف. ومرد هذا شعوره بالغرور والاعتداد بالنفس وهو أن يعترف بخطئه، ولأنه مصمم على أن لا يدان به، يسقط في نوبة انفعال شديد».

هنا، يقول سمارت، بدلا من أن يبين الكاتب لِمَ كان الغضب جنوناً مؤقتاً، يتخبط في تأملات لا ترتبط ارتباطا ضروريا بالقضية المحددة. وقد كان عليه أن يناقش الموضوع على النحو الآتي :

«سُمِيَ الغضبُ جنوناً مؤقتاً. ولكي نقتنع بكون هذا الافتراض صحيحاً دعونا ننظر في الآثار المترتبة عليه.. إن الغضب يربك قدرة الإنسان على التمييز الصحيح والصائب، فتراه في لحظة يصيب أعزَّ أصدقائه بضرر، وفي لحظة أخرى يأخذه بالأحضان. والغضب يقود الإنسان إلى الأخطار. ولو كان ذهنه صافياً لكان أول من يرى هذه الأخطار فيتجنّبها. وصحيح أن الغضب لا يشوِّش الذهن إلى هذه الدرجة ولكنه يربك الذهن دائماً بدرجةٍ مساويةٍ للعنف الذي يبديه. وإذن يصح أن يوصف بأنه جنون مؤقت».

ولنا أن نتساءل ما العلاقة بين هذا النص المستلّ من رواية تعود إلى بواكير العصر الفكتوري بالقضية السابقة ؟ ومن أين جاء هذا التوكيد في أن الغضب دائما يشوش الذهن بدرجة تساوي العنف الذي يترتب عليه ؟ مع ذلك فمن الأفضل أن نحفظ هذا الدرس ونتذكر أن ليس الغضب وحده عاطفة ضالة. فروح الدعاية والملل مثلا يمكن أن يشلاّ القدرة على التمييز الصحيح. وأظن أن سمارت نفسه كان يمكن أن يقول شيئا مثل هذا.

بعد أن أخذنا حذرنا من نسيان القضية والجنون المؤقت الذي يمكن أن تسببه الأهواء المتضاربة وغيرها. دعوني أعرض، مستخدما ألفاظ هوبز، نظرية في المعاني قد تكون حاضرة في تشكيل أكثر قضايا البلاغة الجديدة عمومية.

ويحسن بي أن أسوق تحذيراً آخر هنا. ذلك أن ما سيلي من حديث سيكون تجريدياً عاماً جدا على نحو لا يمكن تجنبه.. وسيكون هذا مثلاً على صعوبة التوصيل التي تنشأ عن استخدام هذه اللغة التجريدية، بدلاً من أن يكون مثلاً على تحقيق التوصيل الذي

نرغب فيه. وإذا كـان الأمر كذلك فالخطـأ لا يمكن، كمـا آمل وأعتقـد، في ضعف إدراكنـا جميعـاً، وإنما في الطـابع التجريدي للغـة. وهي لا بد أن تكون تجريدية في هذا الموضع. فما سـأحـاول أن أقوله، كما أعتقد، لا يمكن أن يقال على نحو سليـم بعبـارة عينية ملموسة. إذ إنه ليس كلاماً على هذا النمـط من المعنـى أو ذاك وإنما على المعانى بوجه عام. ولا يمكن أن أبـدأ هنا بالأمثلة والنماذج. لأن كل الأشياء يمكن أن تكون مثـالاً أو توضيحـاً لما أقول بشكـل متسـاوٍ. والمشكلـة تكمن في كيف سنفهمها. ولكن بعد هذه الجولـة من التجريـدات فإن ما سـأقدمه من تطبيقات في محـاضراتي اللاحقـة سيوضح هذه النقطـة الغـامضة، وبإيجاز، فإن كيفية استخدامنـا لهذه النظرية سيوضح لنـا بشكـل جيد ماهيتهـا.

وإذن لو بدا لكم في نصف الساعة القادم أنكم تسمعون مجرد ألفاظ وأصوات تتردّد فإني ألتمس حلمكم وعذركم. ولعلّي أكسيه بوعد هو أننـا سنعود ثانية إلى المعضلات العملية لسلوك الألفاظ اليومي. وهذه الصعوبة نفسها تمثل في الوقت الحاضر نموذجا للمعضلات العملية الأساسية. وما أقوله الآن، إذا كان صحيحا، شئ نعرفه جميعاً جيداً بشكل أو بآخر. يقول د. جونسون : «الذي لم نفكر فيه بما يكفي هو أن الناس بحاجة إلى من يذكرهم لا من يخبرهم»، وسأسعى لتذكيركم بشئ هين يسير على نحو لا يمكن أن يخطر على بال أحد منكم. أذكركم بشئ «واضح وملمـوس لكل النـاس، عدا أولئك الذين يدرسون كتـابـات الميتـافيزيقين الصعبة، ظنـاً منهم أنه علم عظيـم، ويظنون أنهم لم يفهموها وهم حقيقة فهموها» كما يقول هوبز. وقد يبدو نافعـا أن نستـذكر أن هوبز بدأ سلسلـة محـاضرات في موضوع مقارب بقوله : «إن أبسط المفاهيم المستخـدمة هنا هي مفهوم

الشيء وكينونته. ومهما بدت واضحة أول وهلة، فإنها، عند التأمل الدقيق تزداد غموضاً على غموض دائماً، مع أني أفضل أن أستخدم لفظة «لبعض الوقت» بدلاًمن «دائما». وسنعود على أية حال إلى مسألة الوضوح. ولكن دعونا نبدأ الآن.

أمامي مجموعتان من المعضلات. وقد تكلمت عن إحداها قبل قليل. أعني بذلك تصنيف أهداف الخطاب المختلفة، ثم الغايات والمقاصد التي من أجلها نتكلم أو نكتب. وباختصار تحدثنا عن وظائف اللغة. أما المجموعة الثانية فأعمق من الأولى. ولو استطعنا أن ننظر إليها نظراً صحيحاً فسيكون بالإمكان مقاربة معضلات وظائف اللغة بشكل أفضل من خلالها. ولعلي أستطيع أن أشير إلى هذه المعضلات بطرق متعددة. ما الصلة بين العقل والعالم الذي بوساطته تشير الوقائع التي في العقل إلى الوقائع الأخرى التي في العالم ؟ أوكيف يتسنى للفكرة أن تكون فكرة عن أيّما شيء (مفكَّر فيه) ؟ أوما العلاقة بين الشيء واسمه ؟ وقد لا يأخذنا السؤال الأخير إلى المدى الذي يأخذنا إليه السؤالان الأول والثاني، ولكنها جميعا تشير إلى المعضلة نفسها. وأنا أطلق عليها مبدأ «الاسم» (name - formulation) لأن التبسيط الشديد في النظر إلى «التسمية» (naming)، أو بالأحرى التعامل مع الألفاظ بوجه عام على أنها أسماء (لأفكار في العادة)... كان العيب الرئيس في الدراسة التقليدية. وهذه كما ترون معضلات صعبة حقا. وعلى هذا لا ينبغي لنا أن نتوقع إجابات مقنعة. وعلينا أن نقنع إن كانت هذه الإجابات نافعة إلى حد ما.. نافعة مع أشياء أخر في تطوير نفسها.

أستطيع أن أبدأ نظريتي بالقول إننا «أشياء» (Thnings) تستجيب على نحو ما إلى أشياء أخر، ولتطوير هذه الفكرة علينا أن نتأمل جيداً

خصائص استجاباتنا. ونحن عموماً نستجيب بطرق مختلفة، بعضها بسيط نسبياً، إذا كانت المنبهات مباشرة. كما في حالات القفز عند سماع صوت عالٍ، أو حالات الاستجابة إلى التغيُّر في درجات الحرارة. وحتى في مثل هذه الحالة الأخيرة سنجد، لو قارنَّا أنفسنا بالمحرارمثلا، أن استجابتنا ذات نظام مختلف من التعقيد. إذ عندما يستجيب المحرار للحرارة يختلف طول خيط الزئبق تبعا لاختلاف الحرارة، إلا إذا كـان المحرار رديئاً بالطبع. فما حدث للمحرار سابقاً، وما سجلـه من درجـات حـرارة، والأسلـوب الذي بموجبه سجل تلك الدرجات لايؤثر في استجابته الحاضرة ولا يتدخل فيها. غير أننا نستطيع أن نتخيَّل محراراً يتصرف، عندما ترتفع درجات الحرارة وتنخفض، على نحو لا يمكن تفسيره إلاّ في ضوء أشياء حدثت له في الماضي رافقت ارتفاع الحرارة وانخفاضها، وعلى نحو مماثل، يتصرف هذا المحرار، بشكل مغاير عندما تنخفض درجة الحرارة وترتفع. إن مثل هذا المحرار الخيالي يدلّنا على خصائص سلوكية لا يمكن أن تتوافر إلاّ في الكائنات الحية التي تمتلك عقلا.

والآن فلننظر في أبسط العمليات التي تقوم بها عقولنا. هل تستجيب إلى حافز ما بطريقة لا تتأثر بالأشياء التي حدثت في الماضي عندما كنا قد فوجئنا بحوافز مماثلة إلى حد ما ؟ من المحتمل أن يكون الجواب بالنفي. إن حافزاً من نوع جديد قد يكون سبباً في إثارة إحساس من نوع جديد، فلنقل مثلا إنه إحساس بنوع جديد من الألم. وحتى لو كان الأمر كذلك لكان إدراكنا له في الأغلب على أنه ألم من نوع ما. إن استجاباتنا تكتسب طابعها الخاص بتأثير أحداث سابقة مماثلة إلى حدما.. وبقدر ما يتعلق الأمر بهذا.. فهذا هو المعنى. وهو معنى متواضع بلا شك. معنى تحيا عليه الحيوانات الأقل تطوراً. ومن

المهم أن ندرك، وهذا هو الذي جعلني أعود إلى الوراء بهذه الأوليات، إن معانينا أيضاً تعود إلى الماضي البعيد، وإن بعضها يولد من بعض كما يحصل للكائنات الحية. إنها مترابطة على نحو لا يمكن أن ينفصم، وأستطيع أن أفترض الشئ نفسه بإنكار أن لدينا إحساسات، على الرغم مما يبدو على هذا من تطرف. ولكنه صحيح لو استطعنا أن نفهمه بشكل مناسب. فالإحساس بصفته معطى لا نملك منه شيئاً. وبدلاً من ذلك، نحن نملك إدراكات واستجابات تكتسب خصائصها وطبيعتها من مناسبات ماضية وأخرى حاضرة. فالإدراك ليس مجرد إدراك لشئ ما ؛ فهو بعدما يدركه على أنه شئ من نوع ما أو صنف ما. إن التفكير كله، المعقد منه والبسيط، أو أي شئ يمكن أن يكون هو نوع من أنواع التصنيف (Sorting). وهذا شئ مهم في النظرية التي أقدّمها. لأن هذا في حالة الاقتناع به، يزيل واحدة من أسوأ العقبات التي شوهت الدراسات التقليدية التي تناولت معاني الألفاظ، أعني العقبات التي مهدت الطريق لظهور المماحكات «الاسمية» (Nominalist) والواقعية والتصويرية المعروفة لدينا عبر المعركة الفلسفية البريطانية في القرن الثامن عشر، والتي دارت حول ما إذا كنا نمتلك أفكارا تجريدية.. ؟ وكيف ؟ وما هي هذه الأفكار ؟ وهذه النظرية التي أدعو إليها، تزعم من البداية، أن للمعاني طابعاً شمولياً تجريدياً. وهي تتابع وليم جيمس بقوله إن أبسط الأحياء كالأحياء المائية والمرجان والأميبيا منها مثلاً، لو استطاعت أن تتعلم من ماضيها، أو أن تنذهل بأفعالها ذاتها لبدت لنا كائناً ذا فكر تصوري. إنها تتصرّف وتفكّر وفق مفهوم. ليس بالطبع مفهوماً عن شيء ما. وسلوكها تجريدي وعام، بصرف النظر عن المواقف السابقة. ولأنه كذلك فهو ينطبق في بعض جوانبه لا على شيء واحد، وإنما على أشياء أُخر وعلى هذا فهو عام.

وهذه النظرية تنهي مشكلة القرن الثامن عشر، إذ تجعلها تقف على قدميها. وتتمثل هذه المشكلة في كيف نستطيع من خلال مجموعة أشياء محددة عينية، الوصول إلى العالم المجرد ؟ والنظرية تزعم أننا نبدأ بالعام المجرد نفسه وتجزئه، كما هو حالنا في هذا العالم الذي نعيش فيه إلى أصناف (Sorts)، نصل بعدها إلى الجزئيات العينية الملموسة عن طريق التداخل بين هذه الأصناف أو الأشياء المشتركة التي تجمع بينها. فهذه الورقة التي في يدي شئ ملموس بالنسبة لنا طالما أننا نفكر فيها بخصائصها الورقية ووجودها الزماني والمكاني ولأنها في يدي.

وما أن ندخلها في صنف ما حتى تصبح عينية ملموسة، وكلما ضاقت الأصناف وتحدّدت، تحددت الورقة واكتسبت هويتها. أما الخطوة الثانية في هذه النظرية، فتقودنا إلى الكلمات ومعانيها. وإذا شئنا أن نوجز ما مر لحد الآن لقلنا إن المعنى هو «الفاعلية البديلة» (de legated efficacy) وهذا الوصف ينطبق على نحو خاص من معاني الكلمات. وفضيلة هذه الكلمات أنها تمارس سلطة ما هو غائب وأنها لتفعل ذلك، كما تفعل الإشارات الأخرى من خلال السياقات المختلفة، ولكن على نحو أكثر تعقيدا.

وينبغي لي أن أشرح المعنى الخاص والاصطلاحي نوعاً ما الذي أعطيه للفظة (سياق)، لأن هذا هو محور النظرية وقطبها، إن لهذه الكلمة دلالة مألوفة في السياق الأدبي، إذ إنّ الكلمات التي تسبق لفظة ما وتليها تحدد طريقة تفسيرها. ومن اليسير توسيع نطاق هذا المعنى ليشمل نصوص الكتاب بأكمله. إنني أستعيد الصدمة المؤلمة التي عانيتها وأنا أقف لأول مرة على ما يسميه د.بوزانكويه في كتاب له اسمه (القاعدة الذهبية في الأبحاث الأكاديمية) تقول هذه القاعدة «لا

تقتبس شيئا من، أو تعلق على أي شئ في، كتاب ما لم تكن قد قرأته من الغلاف إلى الغلاف، وكما هو الحال في كل القواعد الذهبية الأخرى، فإن سلاماً عجيباً سيلفّ العالم لو روعيت هذه القواعد، ولا أستطيع القول، بكل إخلاص، إنني ألتزم بهذه القاعدة أو حتى أوصي بها. فهناك طريق وسط أكثر حكمة لأبناء هذا العالم. وبما أنني لست باحثا ولا أرجو أن أكون واحدا منهم.. لا أظن أن الفرصة ستتاح لي للالتزام بها. ويمكن أن يتسع المعنى المألوف لكلمة (سياق) ليشمل الظروف التي تحيط بالكتابة أو القول. وقد نوسٌع دلالة اللفظة أكثر لتشمل، بالنسبة إلي لفظة من شكسبير مثلا، الاستحالات المعروفة الأخرى للفظة في ذلك العصر. وقد يتسع المعنى، أخيرا، ليشمل أي شئ يعود إلى ذلك العصر نراه مناسباً لتفسيرنا. أما الدلالة الاصطلاحية التي سأعطيها لهذه اللفظة (سياق). فلا صلة لها بما مرّ من دلالات، مع أن فيها شيئاً مشتركاً معها، مثلما لها صلة بالظروف التي تتحكم في أي تفسير، وقد يمكننا إيضاح ذلك بشكل أفضل عن طريق تأمل ما يتكرر حدوثه في الطبيعة، وصيغت من أجله قوانين السببية.

ويمكن القول ببساطة إن قانون (السببية) يعني أن حدثاً ما يقتضي، تحت ظروف محددة، حدثاً تاليا له. ونسمي اعتيادياً الحدث الأول (العلة أو السبب) والثاني (المعلول أو النتيجة) ؛ غير أنه قد يحدث الأمران معا وفي الوقت نفسه كما هو الحال حينما أصفق وأشعر— في الوقت نفسه — بالوخز في راحتيّ. فإذا تحدثنا عن العلل الغائية، فسيكون الأمر على العكس من ذلك. وستكون المحاضرة التي تسمعونها الآن هي العلة في مجيئكم إلى هذه القاعة. وهناك أهداف عديدة تدعونا إلى التماس قوانين السببية والبحث فيها. ولعل هذا هو الذي يجعل في الذى مر قدراً كبيراً من الاعتباطية.

ومن أجل أن نحقق انسجاماً وائتلافاً بين هذه الأهداف نجزئ الأحداث. فنجعل ــ مثلا ــ وجود الأرض حدثاً، ودقّة الساعة حدثاً آخر، وهكذا. و نحن نوزع لفظتي العلة والمعلول كما نحب ونرغب. وهكذا فنحن لا يسرّنا أن نجعل الليل سبباً في حدوث النهار أو العكس، بل نفضل القول إنه تحت ظروف معينة يكون دوران الأرض حول نفسها سبباً في تعاقب الليل والنهار. ونحن بشكل خاص، اعتباطيون في التقاط (العلة) من مجموع الظروف أو السياقات، أو مجموع الأحداث السابقة أو اللاحقة، وهكذا فإن المحقق هو الذي يقرر إن كان سبب الموت هو فعل القاتل وليس لقاء الضحية بالقاتل، أو توقف القلب، أو كونه لم يرتد معطفاً واقياً من الرصاص. ذلك أن المحقق معني ببعض قوانين السببية دون بعضها الآخر. وكذلك الأمر هنا، ففي هذا العرض الموجز لنظرية السببية في المعنى، أنا معني بأنواع محددة من قوانين السببية ولست بالضرورة أتحدث عن غيرها. وإذ نعود الآن إلى لفظة (سياق) نقول إن اللفظة تشير بشكل عام إلى مجموعة الأحداث المتزامنة، وندخل في ذلك الشروط المطلوبة وما نختاره مما يمكن أن نسميه (علة) أو (معلولاً) إلاّ أن أنماط التكرار السببي التي يعتمد عليها المعنى تتميّز خلال ما سميته قبل قليل (الفاعلية البديلة). ففي هذه السياقات غالبا ما تأخذ لفظة واحدة مهمات فقرات أخرى يمكن الاستغناء عن تكرارها. وهكذا، فهناك اختزال للسياق يظهر في سلوك الكائنات الحيّة، ويبدو هذا واضحاً بشكل بارز وحاد عند الإنسان، وعندما يحصل ذلك الاختزال فإن ما تعنيه اللفظة أو يدل عليه الرمز، الذي يمثل القوة البديلة الفاعلة، يمثل الأجزاء الغائبة في السياق.

ولو سألنا كيف يحدث مثل هذا الاختزال ؟ وكيف يمكن للرمز أن يمثل علة وظروفاً غائبة ؟ فنحن نقف في الحال أمام محدودية المعرفة، إذ لا أحد يعرف. ولم تقدم التأملات الفسيولوجية شيئاً يذكر في هذا المجال. مع أن تطوراً كبيراً قد تمّ في هذا القرن في تحليل التعقيدات الملازمة للمنعكسات الشرطية إلاّ أنّ التحول والانتقال بقي على حاله لم ينله شرح أو تفسير. ومن المحتمل أن تكون هذه «المعضلة التربوية» عميقة وعصية كالحياة نفسها. ونحن نستطيع إن شئنا، أن نفترض أن بعض الرواسب الباقية من أحداث سابقة تعمل مع الرمز على تحديد الاستجابة. ولكي نفعل ذلك علينا أن نستخدم استعارة مستقاة على نحو كبير من السلوك الإجمالي لأنظمة غير حية مأخوذة عيانا..مثل المطبوعات والأسطوانات وما إلى ذلك. ونستطيع أيضاً أن نكون بارعين تماماً مع هذه الأشياء المستعارة، فنبتكر ملفات عصبية تختزن الانطباعات، أو بدالات تلفون عصبية ذات خصائص وصفات غير عادية. ولكن ما الطريقة التي نستطيع بها أن نستبشير أو نستفيد من هذه الملفات ؟ أوما الكيفية التي يستطيع (P)، في مثل هذا النظام التلفوني، الوصول إلى (B)، إذا كان بحاجة إليه، دون المرور عبر الأحرف الأبجدية كلها مباشرة وبتخبّط، ستبقى قضية غامضة. ولحسن الحظ لن يحتاج علم اللغة أو نظرية المعنى إلى الانتظار لحين إيجاد حل لهذه المعضلة. بل لعلهما يستطيعان أن يمضيا إلى أبعد مما نتصور دون الحصول على إجابة لتلك المسألة وبالنسبة لأهدافنا، يكفي أن نقرر، إن ما تعنيه الكلمة إن هو إلا الأجزاء الغائبة في السياقات التي منها تستمد فاعليتها البديلة.

ولا بُدَّ لي هنا من أن أذكركم بما قلته قبل قليل عن الطبيعة الأولية العامة والتجريدية للمعاني، وكيف أن المظهر الخارجي والعبثي لشيء ما

يتأتى من الطريقة التي تدخل فيها هذا الشيء العيني ضمن عدد من التصنيفات في آن واحد. وتنحو هذه الأنواع (التصنيفات) مجتمعةً لتشكيل المعنى.

والنظرية هنا، كما هو في الأعم الأغلب، يمكنها أن تستغل التلميح الاشتقاقي الوارد في كلمة «عيني» أو ملموس. فإذا تغاضينا عن ذلك وافترضنا أننا نبدأ بالانطباعات المتميزة للجزئيات (يسميها كولردج الثوابت والمحددات) و حصرناها في مجموعات، فإن النظرية التي أدعو لها ستتهاوى فوراً. ولن تكون غير مجموعة من التناقضات والاستحالات. وتلك هي غلطة (الترابطية) عند هارتلي التي شكوت منها سابقاً. فهي لا تعود إلى الوراء بما فيه الكفاية، بل تأخذ الانطباعات المحددة شروطاً أولى. غير أن هذه الشروط بالنسبة للنظرية، ليست انطباعات. إنها تصنيفات وإدراكات وقوانين استجابة وتكرارت لأنماط سلوك متماثلة.

إن أيّما انطباع إن هو إلاّ نتاج عملية نمو متزامن. فوراءه أو فيه تكمن مجموعات تصنيفية، وعندما نأخذ مجموعة من الانطباعات المحددة، ولتكن على سبيل المثال عدداً من الأشياء البيضاء، ونستخلص منها فكرة البياض، فنحن في الواقع نقلب، وبصراحة، عملية كانت قد تمت ضمناً في إدراكنا لتلك الأشياء بصفتها بيضاء، والمجازفة في هذا أننا قد نخلط عملية التجريد التي وصلنا ذهنيا بفكرة التجريد الأولية التي انبثقت منها هذه الانطباعات قبل أن تتم أية عملية انعكاس واعية واضحة.

إن الأشياء، باختصار، أمثلة ونماذج لقوانين. وكما يقول برادلي يقترن الارتباط بالكليات فقط. ومن هذه القوانين، من هذه التماثلات

المتواترة، في عقولنا، وفي العالم الخارجي، لا من الصور المستعارة لانطباعات فردية ماضية، يتشكل نسيج معانينا.. التي يتكوّن العالم الخارجي منها.

قلنا ما يكفي بشأن النظرية. ولكن ماذا عن المعضلات التي ينبغي أن نستخدمها لبناء هذه النظرية ؟ بما أن مهمة البلاغة لا تتعدى الموازنة والمقارنة بين المعاني.. فإن القضية الأولى ستكون الآتية. إذا كان معنى الكلمة هو الأجزاء الغائبة عن سياقها.. فكيف نستطيع أن نوازن ونقارب بين معنيين لكلمتين ؟ إن احتمالات سوء الفهم الشديد هنا قائمة. ونحن لانقترح هنا إجراء عملية الموازنة عن طريق كشف العناصر الغائبة أو تفصيلها، ومن ثم إجراء الموازنة بين الأجزاء الغائبة. إذ لا يمكن إجراء هذا، ولو تم، فسيكون ضياعا للوقت.

ثم إن النظرية لا تزعم أنها تقدم لنا أساليب وطرقاً جديدة للتمييز بين المعاني. فغاية ما تطمح إليه أن تساعدنا على تجنب بعض الممارسات والافتراضات الشائعة المضللة.

مهمة النظرية سلبية أكثر منها إيجابية، وهي على الرغم من ذلك نافعة. إنها لا تساعدنا على أن نعمل ما لا نستطيع أن نعمله حالياً بدونها. ولكنها ستحول دون أن نرتكب حماقات نحن مولعون بارتكابها. وإن أية نظرية في التطوّر ستجعل من الصعب الاعتقاد أن الكلب فرتز في القصص الألماني، يقوم بالعمليات الحسابية نيابة عن الأطفال، أو أنه يذكرهم بالعلم الألماني «العزيز»، بل إن الفيزياء الأولية تدرج ضمن الخرافات اعتقاد السيد غلادستون المتزمّت أن للثلج قدرة خاصة على اختراق الجلد، وهي قدرات ليست في الماء. ولعدم معرفة غلادستون بالفيزياء، فقد استحال على اللورد رايلي إقناعه بخطئه.

إن النظرية السياقية في المعنى ستحول دون أن نطرح عشرات الفرضيات عن المعاني. وهي فرضيات لا تقوم على أساس ولا نفع فيها. وهي مثبّطة للهمّة أيضا. كما أنها تحول دون أن نقوم بعملية تبسيط شديدة تخلق معضلات كاذبة، تتعارض مع الموازنات الدقيقة. وهذه هي مهمتها ووظيفتها الأساسية.

إنها تنتسب، وغيرها من النظريات، إلى ما أسميه «تعليمات الشرطة» (policeman doctrines)، ذلك أنها تقوم مقام قوة الشرطة، فليس من واجب هذه القوة إرغامنا على فعل شئ ما، ولكنها تمنع الآخرين من التدخل الزائد عن اللزوم في نشاطنا القانوني. ويقوم مذهب تنظيم الدوافع القيمية في النقد الأدبي بالمهمة نفسها.

وتعليمات الشرطة تحول دون أن نقوّم الافتراضات غير الملائمة بتضليل الحكمة والذكاء وعندنا مثال واحد من لورد كامس.. صورة ريش الطاووس.. فقد كان ما هو مثبّط للهمّة تلك النظرة الساذجة إلى الصورة بصفتها مادة المعنى. وستكون لدينا أمثلة أخرى عندما نناقش مزاعم «الاستعمال» في المحاضرة القادمة. وما تسعى النظرية لتنفيذه بشكل أساس هو عادة الاعتقاد أن لو أفادت فقرة معنى ما فإنها لا يمكن أن تعني في الوقت نفسه شيئاً آخر مناقضاً له.

وقد علمنا فرويد أن الحلم الواحد يمكن أن يعني أشياء كثيرة، وأن الرموز محددة بشكل دقيق. وأنها تعني اختبارات عديدة من مجموعة الأسباب المكوّنة لها. وتمضي النظرية إلى أبعد من ذلك، فتزعم أن كل أنواع الخطاب خارج نطاق لغة العلم الاصطلاحية، محددة، وأن لها معاني محددة، ونستطيع أن ندلّك على هذا من المناقشات العديدة .الكبيرة. وبقدرة هذه النظرية على كبح جماح

خرافة المعنى الواحد الصحيح، تقدم لنا أملا أفضل في الإفادة من المناقشات. والمناقشة استثمار لمجموعة منظمة من حالات سوء الفهم لأغراض أو أهداف أشبه ما تكون بالأهداف العسكرية، وتفترض النظرية أن سيوف المناقشة يمكن أن تتحول إلى حديدة محراث. وأننا قد نجد طريقاً نستطيع بوساطته، إذا عدنا لهوبز ثانية، «استغلال تأثيرات مرئية سابقاً لمصلحتنا من أجل المنفعة الإنسانية». وتتعلق المعضلة الثانية، بما يمكن أن يحدث عندما ننظم مجموعة كلمات في جمل. ويبدو أن هذا أكثر الطرق شيوعا لطرح المسألة. إلاّ أن النظرية تقترح علينا أن ننظر إلى المسألة على نحو مغاير، فنسأل ما الذي يحدث عندما نعزل المعاني المفردة للألفاظ من سياقها المتكامل الذي هو الجملة أو العبارة ؟

ستكون مسألة تحليل الجمل والعبارات والتفاعل بين الألفاظ في الجملة الواحدة موضوع محاضرتي للأسبوع المقبل، ولكن لا بأس من الإشارة هنا إلى أن حالات سوء الفهم الأعمق جذورا تنبثق بالضبط من هنا.

أما المعضلة الثالثة، فتتعلق بالتنافس بين أنماط السياق المختلفة التي تمد الجملة أو القول الواحد بالمعنى. وهذا ينشأ من أي لبس بسيط كما هو الحال مثلا في كلمة Reason ، التي تعني «السبب» مرة و«الدليل أو الحجة» مرة أخرى، إنني أبسط المسألة لكي أجعل منها نمطاً من أنماط الغموض السهل حقًا. مع أنها في واقع الحال، وفي معظم الحالات، أعتقد بكثير من ذلك. وليس من السهل إيضاحها وبيانها كما يوضح مثال كلمتي «سبب» و«حجة».

إن النظرية السياقية في المعنى تجعلنا نتوقع الغموض وبأوسع نطاق، وفي كل مكان، وبأدق ما يمكن أن يكون. وبالطبع سنجده. وإذ

تعامل البلاغة القديمة الغموض على أنه عيب وقصور في اللغة، فتسعى إلى حصره أو إلغائه، ترى البلاغة الجديدة أنه نتيجة حتمية لسلطان اللغة ووسيلة لا يمكن الاستغناء عنها في أكثر تعابيرنا أهمية، ولاسيما الشعر والدين وسأوضح هذا لاحقا.

والغموض بالطبع مصدر ضيق وإزعاج في الشرح والتفسير كما لاحظتم هذا بالتأكيد على الرغم من كل محاولاتي للتخفيف من هذا الشعور، الذي انتباكم، غير أن الشرح أو التفسير الحيادي إنما هواستخدام محدد جداً للغة، وهوتطور متأخر نسبياً، ونحن (خارج نطاق بعض الأقسام العلمية)، لم نتكيف له بعد. إن هذا يقودني إلى الإشارة إلى التنافس واسع النطاق بين مختلف أنواع السياق الذي يحول أو يغير أهداف الخطاب نفسها. وعندما تتدخل العواطف، عاطفة ميّالة للخصام وغيرها مثلاً، في تشكيل العبارة أو في تفسيرها، فنحن أمام نماذج وأمثلة لفعل السياق وأثره، لا تختلف كثيرا عن تلك التي ترد فيها لفظة (ورقة) بدلالات تحددها سياقات مختلفة.

فالمعنى الإضافي الذي يبدو عندما يراد من جملة، علاوة على دلالاتها الحقيقية المباشرة، الإهانة أو التملق هو أن تُفسَّر على هذا النحو، وقد نسمي هذه معاني عاطفية أو انفعالية وهي لا تختلف كثيرا عن العبارة المباشرة كما يحلو لنا أن نتصور.

وكما أن اللفظة تمثل عنصر الغياب في سياقاتها وأنها بديلة له وتقوم مقامه، كذلك قصد الإهانة يمكن أن يكون بديل ركلة أو رفسة. وهي عنصر الغياب في السياق، وتشمل النظرية العامة نفسها أنماط المعاني كلها.

لقد بدأت محاضرتي بالكلام على تجاوز وظائف اللغة الأخرى على الوظيفة التفسيرية المحضة، وإن للتفسير المحض عواطف تقوم مقام الأوصياء، على الرغم من أنني لا أعرف أسماءها. ولكن هذا ليس بقوة عناصر التجاوز ومن السهولة أن نخدع بها. ولقد صار ضرورياً لنا.

ولاسيما بعد أن أصبحت الأسس المادية لحاضرتنا تقنية محضة، أن نعير الحقيقة فقط شيئاً من اهتمامنا وأن نبعد التجاوز لبعض الوقت، ولقد بالغنا إلى حد كبير في المدى الذي يمكن أن تمضي إليه الوظيفة التفسيرية المحضة. مع أنها، تعد حالة نادرة، خارج نطاق اللغة المقنّنة والدقيقة والمحددة.

لقد بالغنا في الحديث عن نجاحنا لأسباب ستراتيجية، وبعضها حسن لأنها مشجعة، هذا إذا لم نخدع أنفسنا كثيراً، لقد استهدفت في هذه المحاضرة نقاطا أردتها أن تكون تفسيرية محضة لملاحظاتي، وأستطيع القول إنني حققت بعض النجاح بهذا الصدد. سنجد، ولاسيما في موضوع البلاغة، أن التفسيرات والآراء بشأنها، التي لا تكن في المقام الأول خطوات في سياسة التحزُّب، عصيّة ويصعب الوصول إليها. ونتيجة لهذا سنعيد اكتشاف أن العالم، بعيداً عن أن يكون حقيقة صلدة، بنية اجتماعية مكونة من تقاليد وأعراف، ولأسباب غامضة وجدنا من المناسب لنا أن نضع هذه الأعراف والتقاليد وأن نسندها في الماضي.

وإنه لاكتشاف مرعب في بعض الأحيان لأنه يزعزع أسسنا كلها، ويتسلّم أيٌّ واحد ينشر كتاباً يرد في عنوان لفظة (معنى) بريداً من المعجبين ذا طبيعة خاصة، ففيه عدد من الرسائل لا يرد إلاّ من أناس لا يشك في كونهم طائشين، إن المسألة لتبدو حقا خطرة.

فالاهتمام الشديد بمصادر معانينا أمر مقلق تماماً، لأنه يزيد من إحساسنا بأن أفكارنا ستار مصطنع يقوم بيننا وبين أشياء ما كان لنا أن نعرفها إلاّ عبر هذا الستار. وشيء مثل هذا يمكن أن يحدث في أثناء السفر، فأي واحد منا زار بلداً غريباً تماماً يدرك كم هومقلق ومشوّش إدراكنا لمكانة الأعراف والتقاليد في عالمنا العقلي، ويكون التأثير أعمق كلما كان الاتصال أو الاقتراب أشد وأقوى، والقليل من الناس استطاع أن يقترب كثيراً وبشكل فعّال ومؤثر من عالم غريب، على نحو ما فعل الكولونيل لورنس ففي نهاية كتابه (أعمدة الحكمة السبعة) يتحدث عن النفوس التي تحاور الفراغ قائلاً : «كان الجنوب قريباً، وأنا أعتقد أنه يكون قريبا من الإنسان الذي يستطيع أن يرى الأشياء عبر أستار نوعين من العادات أو التربية والبيئة». كان لورنس يكتب عن الإرهاق والإجهاد، وكانت صفحاته تفوح برائحة الخطر الآتي من الحرب والصحراء، ... تلك الصحراء التي تدفع الإنسان إلى أقصى ما يمكنه من الاحتمال والطاقة، إن التأمل في نظام شفري واحد من المعاني، ليس بهذه الدرجة، وقد رأيت ما يكفي من (براين مور) لكي أدرك أنها ليست بعيدة الشبه بالصحراء، وعلى هذا نحن نستطيع أن نمضي بلا تردد في دلالة ما قلته عن بريد المعجبين.

سيكون موضوع محاضرتي للأسبوع المقبل (مذهب الاستعمال وتفاعل الكلمات)، وبما أن ما سيلي من حديث سيكون أقرب إلى الأدب منه إلى الفلسفة، وأنه سيكون تطبيقياً أكثر منه نظرياً، أستطيع أن أختم حديثي بأبيات لجورج شايمان في المبادئ النظرية للبلاغة، وفي أصول التفسير وقواعده والجدل النزيه وصلتها بالفعل. وهذه الأبيات ترد في قصيدة للشاعر عنوانها : (إلى شاب يحلم بالمعرفة) :

«إذا أردت أن تكون حاذقاً حقا بالفلسفة
فذلك هوالطريق السليم
موِّه على ما درسته
حتى تبرهن بالحوار النزيه
إنك تستطيع أن تجمع بين الفعل والقول
وإذا لم تجهر بقولك
فما أصغر فلسفتك حين تنبثق عن فعلك
لا عن الرموز والظلال»

وإني لأعتذر إذا كنت قد خرجت عن روح توصياته في هذه المحاضرة.

المحاضرة الثالثة

تفاعل الكلمات

انتقل إلى المعنى الآخر لـ «السياق» ــ أعنى السياق الأدبي ــ الذي ميزته في المرة السابقة عن المعنى التقني للسياق باعتباره مجموعة ما يتكرر في الوقائع التي تنسجم مع نظرية المعنى ولنتأمل بعض مظاهر تأثير الجمل المؤلفة في الكلمات، وكيف أنّ معنى هذه الكلمات يعتمد على معاني الكلمات الأخرى السابقة لها أو اللاحقة عليها في الجملة. ماذا يحدث حين نحاول أن نعرف من جملة ما تعنيه كل كلمة فيها على انفراد ؟

إن الجملة كما أشار إلى ذلك أرسطو، هي بالطبع وحدة الخطاب ومن الصعب أن نضفي أهمية أكبر على آثار طريقتنا الحديثة في فرز الكلمات، فنحن لا نفرزها في نقاشنا اليومي بالطريقة نفسها ما لم نكن نسأل الكلمات نفسها. وغالبا ما يداخلنا ارتياب كبير بالنسبة للّغات التي لم يُهيأ لها أن تُكتب، وتتعرض بسبب من ذلك إلى نوع خاص من التحليل النحوي ــ وينبغي الالتفات إلى أن اسم النحو مشتق من الكتابة ــ فلا نعرف أين تنتهي الكلمات بالضبط، وأين تبدأ الأخرى. فالكتابة تعطي الكلمات استقلالاً أكثر من استقلالها حين تكون وحدات صوتية في الكلام، وبسببها فقد تعودنا أن نمنح الكلمات استقلالاً في المعاني أكثر ما تمتلك في الخطاب المكتوب أو المنطوق على السواء.

ويتنوّع الاعتماد المتبادل للكلمات بتنوع أنماط الخطاب، فيقف في إحدى كفتي الميزان عدد كبير من الكلمات التي ثبت استقلالها في الصياغات الصارمة لبعض العلوم المستقرة والراسخة في كلام مُتّفَق عليه.

وهذه الكلمات تعني شيئاً معيناً واحدا أيّا كانت الكلمات الموضوعة إلى جوارها، وإذا انتقلت الكلمة فهي لا تنتقل إلا إلى عدد قليل من المواضع الثابتة التي يمكن تسجيلها وحصرها. وهذا هوالحدّ المثالي الذي نتوجه إليه بالعرض. فنحن لسوء الحظ نميل ــ وعلى نحومتزايد منذ القرن السابع عشر فصاعدا ــ إلى اعتبار الخطاب المستقر معياراً، ثمّ نفرض مقاييسه على سائر الكلام. حتى صرنا لا نرى في الماء بكل منافعه في الشطوط والمسابح والطوربينات إلا صورة من صور الثلج. أما الكفة الأخرى في الميزان فيقف فيها الشعر، أو بالأحرى بعض أشكاله. وما نعرفه قليل جداً عن سلوك الكلمات في هذه الحالات، ولا سيّما حين تقترن قوتها بمعنى ثابت مستقرّ يمكن فصله عن الكلمات الأخرى الواردة معها. وثمة إمكانات أخرى كثيرة هنا لم تجرّبْ نظرية اللغة التفكير بها حتى الآن. فغالباً ما يكون القول الذي تنتظم فيه المعاني المتضافرة معاً للكلمات المكوِّنة قولا هو بذاته غير ثابت المعنى، فلا ينتج عنه معنى واحد، بل حركة من المعاني. بالطبع تصادفنا حركة المعنى حتى في أكثر أنواع النثر صرامة. فنحن نتغير والجمل تتطور. وفي جملة (القط على الحصير) نبدأ بالقط وننتهي بالحصير وهناك توال وتعاقب من نوع ما في جملة صريحة، لكنّ معاني الكلمات في النثر الصارم تبقى موضوعة ومنتظمة نظرياً، في حين ينتقل العقل من واحدة منها إلى الأخرى في كفة الميزان هذه يتغيّر معنى الجملة كلها، وبتغيره يتغير المعنى الذي يمكن أن ننسبه لأية كلمة

فيها على انفراد، وهو يستمرّ بالحركة كلّما تأملنا فيه بشيء من الذكاء، وحين يحدق أوكتافيوس قيصر في كليوباترا ميتة يقول :

تبدونائمة
وكأنها تريد أن تمسك بانطونيو آخر
بشراك حسنها المتينة.

(شراك حسنها المتينة) كيف ووفقاً لموادّ أي معجم يمكن أن تتوقف معاني (شراك) و(حسن) عن الحركة؟

غير أنّ موضوع دراستي هوالبلاغة أكثر مما هو فن الشعر. وأودّ أن أبقى مع النثر الذي لا يبعد كثيرا عن كفة العلم الثابت في ميزات هذين المتحولين غير المستقلين. ففي النثر الذي اتحدث به الآن يجب عليكم أن تنتظروا حتى أمضي في عبارتي قليلا قبل أن تقرروا كيف تفهمون المقاطع الافتتاحية من الجمل. لكن لو أني بدلاً من ذلك كنت أقرأ عليكم نظريات أقليدس الأولى القليلة لاختلف الأمر، فما أن أقول (مثلث) حتى تفهموا ما تعنيه الكلمة فوراً، وحتى لو جئت بتعبير يعادله في المعنى مثل (ما يتساوى ضلعاه) فلن يدمّر أويغيّر تماماً معنى الكلمة الذي أعطيتموه لها. لكن على الكلمات الافتتاحية في النثر بعامة، وبشكل أكثر مما يمكن افتراضه عادة أن تنتظر الكلمات التالية لها لكي تقرر ما تعنيه، إذا كان يمكن لما تعنيه أن يستقرّ.

يصدق كل ذلك فيما يخص معاني الكلمات الباقية وكذلك وظائف اللغة التي نستطيع أن نميزها أونفرضها على المعنى المجّرد. كما يصدق أيضاً فيما يخص الشعور، إذا كان موجودا، الذي أكنّه نحوالموضوع الذي أتحدث عنه، وفيما يخص هذا التعليق، وفيما يخص

الاطمئنان في صواب هذا التعليق... هذا إذا أردنا أن نذكر ثلاثة أنماط من وظائف اللغة. لهذه الأسباب أستعين في الكلام العادي بالتنغيم بالطبع، ولكن ما يحصل في معاني الكلمات مشابه لما يحصل في بنية التنغيم، فتنغيم الكلمات الافتتاحية قد يكون غامضاً، أي إنه يبقى بانتظار اكتمال القول لكي يكتسب تغيره النهائي.

وفي الكتابة يجب أن نغفل التنغيم قدر الإمكان، وأكثر سمات الأسلوب النثرية إبهاماً تنجم عن المهارة التي تأتلف وتنسجم فيها المزاعم المتنافرة لمختلف وظائف اللغة. والعديد من المصطلحات الغامضة نوعاً، والتي غالباً ما تستعمل في مناقشة هذه القضايا مثل : التناغم والإيقاع، والرونق، والتسيج، والنعومة، والليونة، والانطباع... الخ يمكن تحليلها بشكل جيد من وجهة النظر هذه، أو لنقل إن الفقرات التي يبدو أنها توضح هذه الخواص (أو تخفق في إيضاحها) لا يمكن أن تدرس إلاّ في ضوء وظائف اللغة المختلفة. ومن الواضح أننا لا نستطيع أن نفعل شيئا مع هذه الكلمات مثلما نستطيع مع هاتيك مباشرة. فقد تعني مختلفَ أصناف الأشياء في مختلف السياقات الأدبية.

لقد قادني الحديث صعدا ــ أو صببا إذا شئتم ــ إلى ملاحظة شديدة البساطة وواضحة ولكنها أساسية : وهي أنه لا يمكن الحكم على كلمة بالجودة أو بالرداءة، بالصواب أوالخطأ، بالجمال أوالقبح، أوأي حكم آخر يعني الكاتب، بعزلها وإفرادها. وتبدو لي هذه الملاحظة واضحة إلى حد أنني أخجل من ذكرها. ومع ذلك فهي تنصب ماثلة تتحدى المذهب الوحيد الذي ساد رسمياً لقرنين، إذا جاز لمذهب أن يسود في مثل هذه القضايا. أعني مذهب «الاستعمال» الذي يرى أنّ هناك استعمالاً صحيحاً أو جيدا لكل كلمة، وأن فضيلة الأدب هي استثمار هذا الاستعمال الجيد...

ثمة نقاط عديدة تمكن إثارتها حول هذا المذهب الذي نوقش باستفاضة في مختلف الحقب، وأثير عندنا منذ منصف القرن الثامن عشر فصاعدا. وقد كان إرثنا سيئاً حقاً من ذلك القرن السعيد في نواحي أخرى. ويمكن العثور على أفضل ما فيه في كتاب (فلسفة البلاغة) لجورج كامبل الذي كانت كاتباً ممتازاً من أوجه عدة. كما يمكن العثور على أسوأ ما فيه، أو تقريباً أسوأ ما فيه في معظم كتب البلاغة والإنشاء المدرسية التي ابتليت بها المدارس، ولا سيّما الأمريكية. فهو يدّعي أن «الاستعمال الجيد هوالممارسة العامة الحالية لأفضل الكتاب». وإحدى النقاط التي يمكن أن نعترض عليها.هي كلمة (أفضل). إذ كيف يكونون أفضل الكتاب دون أن يستعملوا الكلمات أفضل استعمال ؟ إن جوابنا هوأنهم أفضل الكتاب لأننا نجدهم يستعملون كلماتهم بنجاح، ولسنا نجيب بأنّ استعمالهم هوالاستعمال الصحيح والجيّد لأنهم يستعملون الكلمات هكذا. فما من شخص عاقل يضع العربة أمام الحصان. ونحن كمن يزعم أن التفاح مغذٍ للصحة لأنّ(2) العقلاء من الناس يأكلونه دون التأمل في أننا نأكل الطعام لكونه جيداً، وليس كونه جيداً لأننا نأكله.

غير أن هذه ليست النقطة الرئيسية التي يجب أن أعترض عليها بصدد هذا المذهب، وهي أنه يخفي أويتغافل عن تواشج الكلمات بعضها مع بعضها. وأفضّل أن أستشهد بجملة أوجملتين برهاناً على ذلك حتى لا تظنوا أنني اخترع شبحاً لأطرده، وأنتزع من «دليل البلاغة» الذي يحمل أسماء ثلاثة مؤلفين هم السادة : غاردنير، وكترج، وارنبولود. وقد اخترت هذا الكتاب لأنّ الاحترام الذي أكنه لاسم السيد كترج يجعل مذهباً يمتلك هذا القدر من التسلط مستحقاً للدحض. يقول المؤلفون : «إنّ الاستعمال يتحكم باللغة. وما من معيار

آخر. والمقصود من الاستعمال هو ما مارسه أفضل الكتاب والمتكلمين». (وقد تساءلتُ عن المعيار الذي ينبغي اقتراحه لتسوية مشكلة الأفضلية وأجبت عنه). ثم يمضون في تأمل «المبادئ الأربعة الكبرى في الاختيار وهي : الصواب والدقة، والمناسبة، والمقدرة التعبيرية» التي يقولون إنها «تقع في حدود الاستعمال الجيد في كل حالة يسيطر عليها... وإنها يجب أن تهدينا في اختيار الكلمات». وإليكم ما يقولونه عن الصواب (Corroctnes) : «إن الصواب هوأول مطلب أساسي، فمعاني الكلمات تستقر بالاستعمال. ولواستعملنا كلمة استعمالا غير صحيح -أي بمعنى آخر غير ما تنتسب إليه- فان القراء سيتخبطون ويظنون بها الظنون، أوفي الأقل سيصلون إليها بالاستدلال والتخمين».

الاستدلال والتخمين ! وهو في التفسير غير ذلك ؟ كيف نصل إلى فهم فكر الكاتب أو المتكلم دون استدلال وتخمين ماهرين ؟ أعتقد أن هذه أفضل طريقة لنبش النار من الأعلى. لكنني ما زلت أريد أن أقدم لكم المزيد من الأدلة. يقول مؤلفونا : «في دراسة مبادئ الاختيار الأربعة، نرى أن الأول فقط (الصواب) يتضمّن قضية الصحيح والخطأ، أمّا المبادئ الأخرى فتهتم بقضايا التمييز بين الأفضل والأسوأ، أي إنها تهتم بسبل تقريب الكلمات من الأفكار والمشاعر التي يراد التعبير عنها، ففي المبدأ الأول فقط (الصواب) نستطيع أن نركز انتباهنا على الكلمة المفردة».

تلك هي النظرة التي أردت توضيحها، ولا ينبغي لنا أن نجعل من غرابة هذا التعبير : «الصحيح والخطأ»، «الأفضل والأسوأ»، ولا نقلق بشأن الكيفية التي نتوصل فيها إلى أي شيء «بتركيز انتباهنا تماماً على كلمة مفردة» ربّما باستثناء طريقة إملائها.

إن النقطة الأساسية هنا هي افتراض أن للكلمات معانيَ مطلقة، كما أن للناس أسماءهم، وهي تحمل معها هذه المعاني إلى الجمل بصرف النظر عن الكلمات المجاورة، وذلك الافتراض هو ما أهاجمه، لأننا لوتابعنا ما يترتب عليه من نتائج عملية في الكتابة والقراءة وتحرينا تأثيراته في التفسير لوجدنا أنّ عددا ليس بالقليل من أسباب سوء الفهم اللفظي كامن فيه. وبتفسيري لهذه الفقرة، أرجو ألاّ أكون بلا وعي مني، نموذجاً لسوء الفهم الذي أتحدث عنه. فأنا أعرف أنّ ما كان في أذهان المؤمنين بشأن (الخطأ) هوقول الناس : Ingenious (مبدع، حاذق) وهم يقصدون Ingennous(ساذج، برىء). وأعرف أن مذهب الاستعمال يمكن أن يُفسّر بطرق عديدة تجعل منه صادقاً وخلواً من الضرر.

يمكن القول وبصدق إننا نتعلم كيف نستعمل الكلمات من الاستجابة لها، ومن ملاحظة طريقة استخدام الناس لها. ولكنّ كيفية هذا التعلم مسألة عميقة وتحتاج إلى سبر. ويمكن القول أيضاً إن الاتفاق العام بين متكلمي اللغة هوشرط التوصيل. فما من أحد يحلم بالخلاف. لكننا لو تأملنا الاتفاق ؛ لرأينا أن هناك نوعين من الاتفاق، اتفاق في العملية العامة للتفسير، واتفاق في بعض النتائج الخاصة. ونحن جميعاً نعرف كيف أنّ نقاد القرن الثامن عشر السذّج (القرن الذي أعطانا مذهب الاستعمال الحالي) وهم الذين كان يفكر فيهم وورد زورث حين كتب مقدمته، خلطوا الإنتاج الشعري بالعملية الشعرية، وظنوا أن القصيدة جيدة لأنها تستعمل اللغة الشعرية التي استعملها كبار الشعراء سابقاً، فاستعملوها بالطريقة نفسها. إنّ مذهب الاستعمال، إذا ما فسرناه تفسيراً ضاراً إن هو إلاّ هذا التخبط بين أكثر حالاتنا شمولا وأشدها خطراً. والتفسير الضار هوالشائع ويكمن ضرره في أنه يسلّم

بأننا نعرف معاني كلمات مؤلف معين قبل أن نقرأه، فيعدُّها عوامل ثابتة يبني منها معاني جملته كما تشكّل الفسيفساء من الجمع بين قطع مستقلة منفصلة. لكنّ المعاني في الحقيقة نتائج لا يمكن الوصول إليها إلا عبر تفاعل الاحتمالات التفسيرية في عموم القول. وباختصار علينا أن نخمّن أفضل حينما ندرك أننا نفعل هذا بالضبط، فذلك يدعونا إلى الاحتراس. وهذا أفضل بالطبع من الاعتقاد بأننا نعرف سلفاً.

وبهذا الصدد، للكتاب عادات كثيرة كما للقراء. ولكنني سأبقى مع التفسير، فالكلمة أو العبارة التي تعزل للحظة عما يجاورها من الكلمات التي تضبطها وتحددها تبلور معاني غير ذات صلة، بحيث تمنع نصف الكلمات الأخرى من اللحاق بها. وهذا يصحّ على وظائف اللغة الأخرى غير التعبير عن المعاني كالتعبير عن الشعور مثلا. وسأعطيكم مثالاً عن تفسير غريب للشعور، وإذا كنت قد أخذته من (دليل البلاغة) نفسه، فذلك لأنه يوضح أحد الأشياء التي تؤدي إلى النظرة أو العادة الفسيفسائية في التفسير في مقابل التفسير العضوي الحي.

يقدم المؤلفون الفقرة التالية من مقال (تقدم المعرفة) لبيكون، وسأطلب منكم حين أعيد قراءته أن تلاحظوا كيف أن بيكون وهو يصف سوء استعمال المعرفة يسترد بإحدى يديه ما يبدو أنه يهبه بالأخرى، موضحاً لماذا يفضل الناس سوء الاستعمال، ولماذا لا يفضلونه :

«غير أن أكبر الأخطاء هوالخطأ في وضع غاية المعرفة في غير موضعها، ذلك أن الناس قد استولت عليهم الرغبة في التعلم والمعرفة، أحياناً بدافع الفضول الطبيعي واشتهاء التعرف وأحياناً لإمتاع عقولهم

بالتنويع والبهجة، وأحياناً طلباً للشهرة والفخار، وأحياناً لتمكينهم من الظفر بالفطنة وحب المعارضة، وفي أغلب الأحيان طلباً للربح والاحتراف، ونادراً ما يكون دافعهم المخلص تقديم تفسير صادق لموهبتهم العقلية ولمصلحة الإنسان وفائدته. فكأنهم يريدون من المعرفة أن تكون مضجعاً تستريح عليه الروح الباحثة التي لا تهدأ، أومتسعاً من الأرض يسري عليه العقل المتجول صعداً ونزلاً في مشهد مهيب، أو برجَ أبهةٍ يعتليه العقل المتفاخر، أو حصنا أو أرضاً عسكرية للقتال والنزاع، أو دكاناً للبيع والشراء، وليس مستودعاً ثرياً لمجد الخالق ولراحة المخلوق».

ينبغي لي أن أعترف أنّ في هذه القطعة أشياء كثيرة تستحق الرثاء، ولا سيّما المضجع والبرج والحصن في مذهب الاستعمال. لكنّ ما يقوله المؤلفون هوالتالي : «فخامة الخيال هنا ليست مجرد زخرف، فلولاها ما كان باستطاعة بيكون أن يعبر تعبيراً يناسب تقديره المفرط للمعرفة وازدراءه الاستعمالات العقيمة التي توضع فيها أحياناً لكنّ المجازات ترتفع بهذه القطعة من مرتبة النثر العادي إلى فصاحة رفيعة».

أية فخامة في الخيال ؟ ليست في صور بيكون فخامة، فهي مجرد وسائل فعالة محكمة لقول ما يجب أن يقوله. وتقديره المفرط (وهي عبارة بائسة أريد منها الزراية به) لجدوى المعرفة، وازدراؤه للاستعمالات العقيمة لا يصلان إلينا إلاّ إذا رفضنا أن تخدعنا احتمالات الفخامة في الصور المفردة. حررها ولو قليلا من سياقها وأظهر استقلال الفخامة فيها تجد أنها في تعارض شديد مع نياته. إن صور «المتسع من الأرض» و«البرج» و«الحصن» أكبر وأوسع من التفسير الصادق للعقل وكونه لنفع الإنسان وإفادته. كما أن المتسع من الأرض وبرج الأبهة.والحصن أكبر من محض مستودع ثري.

ولأمضي إلى بعض الأنماط الأخرى من التأثير المتبادل والتواشج بين الكلمـات، فأنا حتى الآن لم أتـأمـل إلاّ في تـأثير الكلمات الموجودة حقاً في النص، لكنّ علينـا أن نضمّنه الكلمات التي لم ترد فيه والتي بقيت بعيـداً عن الأنظـار. خذ حالة ما يُسمّى الكلمـات التعبيـرية أو الـرمزيـة أو التصويرية (Simulative)، أي تلك الكلمات التي تـوضح المعنى مبـاشرة أكثر مما تفعل صور الكـلام الاعتيـادي إلى حدٍّ ما، إذا اقتبسنـا عبـارة ليونـارد بلومفيلد، والأمثلة على ذلك الكلمـات التاليـة :

Flip; Flap, Flop, Flitter, Flimmer, Flicker, Flutter, Flash, Flush, Flag, Glare, Glitter, Glow, Gloat, Glimmer, Bang, Bumb, Lump, Thump, Thwack, Sniffle, Snuff...

لماذا تبدو هذه الكلمـات مناسبـة تماماً ومطـابقة للتعبيـر عن المعاني التي نستعملهـا للتعبـير عنها. ترى النظرة الشعبية أن هذه الكلمات تحاكي وتقلّد ما تعنيه. فهي صور متنسخـة منه غير أن هذه نظرية تختصر الطريق وتظل غير ذات فائدة دائمـاً، ويمكننـا فيما أرى، أن نمضي أبعد وأفضل. وكما يقول بلومفيلـد في كتابه الممتـاز «اللغـة»، فإن : «التفسير مسألة تخص البنية النحـوية. في حين أنها تبدو للمتكلم وكأن الأصوات تلائم المعـاني». فالمتكلم يعتقد في العادة أن الكلمـة تبدو منـاسبة لأنهـا تشـابه المعنى على نحو ما، أو، إن لم يحض ذلك بالتصديق، لأن هناك ارتبـاطـاً مبـاشـراً بينهمـا. وإذا لم يكن صوت الكلمة مشابهاً لمعناها، فقد يكون في حركة اللسان وحركـة الشفتـين ما يقلّد المعنى... إلى غير ذلك. وهكذا ينبغي لنا أن نعود في هذا العصـر إلى نظريـات السير رتشـارد باجيـه عن إيمـاءات المحاكاة.

إن أقصى ما يستطيعه اللغوي الحديث — وهو يوازن ويقارن بين الكلمات المختلفة جدا التي تستعمل في لغات مختلفة لتأدية معانيها — لمراعاة المشابهة بين الأصوات والمعاني هو أن «نميز بدرجات مختلفة من الوضوح، دون أن ننسى الحالات المشكوك فيها على التخوم، نظاماً للمورفيمات التي تشكل الجذور الأولية والنهائية ذات الدلالة الغامضة المبهمة». وأرجو أن تلاحظوا كيف يتناول بلومفيلد هذه النقطة بحذر.

ينبغي لي أن أوضح ما المورفيم، تشترك كلمتان أوأكثر بمورفيم واحد حين يكون فيهما في الوقت نفسه شيء مشترك في المعنى، وشيء مشترك في الصوت. والوحدة الدلالية - الصوتية الرابطة بينهما هي ما يسمى «المورفيم». فهو الجمع بين صوت معين ومعنى معين في عدد من الكلمات. وهكذا تشتررك الكلمات :

Flash, Flare, Flame, Flicker, Flimmer

في الصوت (FL-) والإيحاء بحركة ضوء، وامتلاك هذه الرابطة هو«المورفيم» وكذلك تشترك الكلمات :

Blare, Flare, Glare, Stare

في الصوت (-ed) ومعنى الضوء الساطع أوالصخب، فازدواج الصوت والمعنى هوالمورفيم.

وكذلك الحال مع الرطوبة الناعمة واشتراك الكلمات:

Slime, Slipe, Slush, Slobber, Slide, Slither

في الصوت (-SL). لكن الكلمات :

Pare, Pear, Pair.

لا تشترك في المعنى على الرغم من اشتراكها في الصوت، ولذلك لا تشترك في المورفيم.

بالطبع يؤثر وجود مجموعة كلمات ذات مورفيم مشترك في صياغة الكلمات الأخرى وطريقة لفظها بما يجعلها تتماثل مع المجموعة. وهكذا فإنّ وجود كلمتي Skid و Skate يكون سبباً إضافياً، بخلاف ما جرى عليه العرف في الإنكليزية لكي نقول Skee وليس Shee .

إن هذا المصطلح المتحذلق في الظاهر (المورفيم) مفيد لأننا بمساعدته نحتاط أن لا نقول إن الصوت (-SL) يعني في ذاته شيئا ما مثل (الرطوبة الناعمة أوالانزلاق)، وبذلك يعلمنا أن لا نقول أكثر من أن هذه المجموعة من الكلمات التي تشترك بهذا الصوت تشترك أيضاً بمعنى معين. هذا هو كل ما يسمح لنا بقوله ... أما الزعم بأن الكلمات تشترك في معانيها لأنها تضمّ هذا الصوت، ولأن هذا الصوت له ذلك المعنى، فذلك يعني أننا نتحدث بأكثر مما نعرف، أعني أننا نقدم تفسيراً أو نظرية لما لا نعرفه. وهو في الحقيقة تفسير سيء، لأنّ هذا الصوت في ذاته لا يعني شيئاً، وأية كلمة من هذه الكلمات هي ما يحمل المعنى وليس الصوت المشترك. والصوت في ذاته إما أنه لا يعني شيئا على الإطلاق مثل (-FL) في :

Flame, Flare, Flash, Flicher

أويكون ذا معنى خارج الصدد مثل (-e ∂) في :

Blare, Flare, Glare, Stare

فهذه الأصوات تشترك في (air) بمعني (الهواء) الذي نتنفسه. إنّ هذا الموقف النظري يستحق الدراسة لأنه نموذج سائد تنبثق منه

مجموعة من المواقف التي نميل فيها، بجرأة وبراءة بالغتين، إلى تخطي البرهان وتجاوزه، فنفترض أن خلاصة المحاججة الجدلية التي لم يقم عليها البرهان والسريعة والغامضة، وهي غالباً محاججة رديئة ولا مسوغ لها، إنما هي تفسير واضح، أو قل معطى ثابت. فلماذا يجب أن تمتلك مجموعة الكلمات التي تشترك في صوت معين معانيَ متشابهة ما لم يكن بينها تطابق من نوع ما بين الصوت والمعنى ؟ قد يبدو ذلك مقبولاً. ولكن ابسط المحاججة (argument) بوضوح وتفحص الدليل بعناية، تجد أنه غير مقبول لأن علينا حينئذ أن نرى الكلمات الأخرى التي تشترك في الصوت ولا تشترك في المعنى، والكلمات الأخرى التي تشترك في المعنى وتختلف في الصوت. فنجد حينئذ أننا أخضعنا الكلمات لنوع المحاججة الجدلية (Argument) التي تحيل نمطا من أنماط التعبير التلقائي إلى نزوع فطري. ونجد في الحقيقة أننا ننظر في المسألة على نحومعكوس. فما ندركه من تطابق بين الصوت والمعنى مصدره الاشتراك، أي إن مجموعة كلمات تشترك في الصوت والمعنى هو أصل اعتقادنا بالتطابق وليس العكس.

ولقد قلتُ منذ لحظة إنّ هذا الموقف نموذج سائد. وليس في وسعنا فيما أرى المبالغة في تقدير عدد المشكلات الأدبية والبلاغية التي قلبتها هذه الصياغة التقليدية رأسا على عقب. منها مثلاً افتراضنا الشائع بأن كلمات مثل beautiful (جميل) أو Art (فن) أو religion (دين) أو good (جيد)، تستعمل بطرق عديدة، ويجب أن يكون هناك شيء مشترك بين استعمالاتها جميعاً، شيء هو معنى الكلمات الأساسي والجوهري الذي يفسّر استعمالها. وهكذا نضني عقولنا في محاولة الكشف عن هذا المعنى الجوهري المشترك دون أن نفطن إلى أن ما نبحث عنه هو حصيلة محاججة جدلية ضعيفة وسريعة في الأعم

الأغلب. وهذا الافتراض بأن الكلمة نفسها كان يجب، أو يجب أن يكون لها المعنى نفسه، إنما هو في جانب مهم من جوانبه، واحد من الافتراضات المستبدة التي ينبغي أن تحمينا منها النظرية السياقية في المعنى، بالطريقة التي شرحتها بها في المحاضرة السابقة.

ولكن لنعد إلى الافتراض المقابل بأن بعض الكلمات دون غيرها يجد أن تعني بنفسها ومن خلال الصوت أشياء معينة. لقد كان أرسطو هوالذي نفى أن يكون هنالك ارتباط طبيعي بين الصوت في أية لغة، والأشياء التي يدل عليها. ولو وضعنا هذه المشكلة في مقامها الصحيح، وتذكرنا الكلمات الأخرى قبل فحصها لاتفقنا معه. وفي الحقيقة إذا وضعنا هذا السؤال وضعاً صحيحاً لصار -بعد أن نفهمه جيدا — سؤالاً لا معنى له تقريباً، أية مشابهة أو ارتباط طبيعي يمكن أن يقوم بين العناصر الدلالية والعناصر الصوتية في المورفيم ؟ هل يشبه الصوت-FL) (ضوءاً متحركاً حقـا بطريـقة تختلف عن شـبه الصوتين (-SL) و-GL) (به ؟ أليس هذا مثل قولنا إن طعم الديك الرومي يطيب على نحو ما كما لا يطيب طعم النعناع ؟

أستخلص إذن أنّ هذه الكلمات التعبيرية أو الرمزية تستمد حقيقة كونها متناسبة مع الكلمات الأخرى، التي تشترك معها في المورفيم الذي يسندها ذهنياً، وإذا كان الأمر كذلك اتضحت النتائج كافة في الحال. ففي الترجمة مثلا، قد لا يكون للكلمة التعبيرية في اللغة الثانية بالضرورة صوت مشابه لصوت الكلمة الأصلية، بل ستكون كلمة تسندها كلمات أخرى وبأسلوب مماثل إلى حدٍّ ما. من الواضح إذن أنّ التقدير الصحيح لكلمة من كلمات اللغة الأجنبية لا يكمن في معرفة معناها واستعذاب صوتها فحسب، بل يكمن في معرفة الكلمات الأخرى التي تشترك معها في المورفيمات في تلك اللغة، وهكذا لا

يستطيع أحد أن يقدّر تقديرا جيداً الملامح التعبيرية في الكلمات الأجنبية دون ألفة حميمة وواسعة مع اللغة، وإلاّ فإن تقديرنا سيكون مجرد نزوة عابرة.

ونستطيع، بل يجب، أن نوسّع هذه الفكرة القائلة إن الكلمة تسندها كلمات أخرى غير منطوقة، أولم يُفكّر بها. وأول ما يتجه إليه هذا التوسع الكلمات المتماثلة صوتاً، دون أن تشترك في مورفيم، أي الكلمات التي لا تشترك في المعنى تماماً بل جزئياً، فالكلمات : Blare, scare, dare لا تشترك في مورفيم، ولكن في بعض الحالات قد تكون القوة المتمثلة بالكلمة blare قد نفذت إليها من الكلمات الأخرى. وهذا بالطبع تكبير وتضخيم للمبدأ الذي كان يـمارسه لويس كارول في Jobberwocky، وصلته بالتقفية والجناس (assonance) واضحة.

ويجب أن لا يقتصر التوسع الآخر الأكبر على الآثار المتأتية من الكلمات المتشابهة صوتاً إلى حدّ ما، بل يجب أن يشمل الآثار المتأتية من الكلمات التي تتداخل في المعنى أيضا مثل الكلمات التي كان يجب أن نستعملها كبدائل، وأسباب إهمالنا إياها. ويتطرق توسع آخر شبيه إلى الاستعمالات الأخرى في سياقـات أُخر، لما نطلق عليه يبساطة «الكلمة نفسهـا»، فقد يظل معنى كلمـة معينة واحدا في بعض الأحوال، سواء اندرجت في سياق أو بقيت بمعزل عنه. وفي أحوال أخرى يأتي المعنى من الاستعمالات الموازية الأخرى التي نحسّ ارتباطها به دون أن نستطيع تحديده بوضوح. لكن يتراءى لي أنني مع هذه الفقرات الأخيرة مشرف على خطر جعل قوة الكلمة، أي الشعور بعدم وجود كلمة أخرى تقوم مقامها أو تحلّ محلها، مسألة ينسحب تفسيرها على اللغة كلها. ولستُ واثقاً من أننا يجب أن نشعر بالخجل من خلاصة كهذه، فاستعمال اللغة الرفيع بحق ـــ في خطاب حرّ

وسلسٍ وتقني، كاستعمال شكسبير مثلا ـــ يمتد صوب استعمال اللغة كلها.

حين تأخذ كليوباترا الصلّ بيديها تقول له :

«تعال أيها المخلوق التعبير الفاني
واقطع بأنيابك الحادة هذا الرباط الحميم
بالحياة دفعة واحدة، أيها الأحمق القاتل
اغضب، وأجهز عليّ»

تأمّل كم معنى تنطوي عليه كلمة mortal (فاني)، فإلى جانب «ما يتعرض للموت» قارنها بـ «أنّ بي حنينا لا يفنى». وتأمل كلمة Knot (رباط) في قوله : «هذا الرباط الحميم»، ثمة شيء لم ينجز بعد، شيء يزعجنا ما دام لم ينجز، شيء يتوقف عليه تماسك الجملة، رابطة المعاني كله أمّا دخول المتجانس الصوتي (homophone) : not (لا)، فمسألة مشكوك بها، وإن كنت أحسّ أنها ذات مساس، لكن تأمل intrinscate (حميم) مع knot (رباط)، إنّ ادوارد دودن الذي كان متاشياً مع تقليعة عصره في جعل شكسبير بسيطاً قدر الإمكان، أعطى كلمة intrinscate معنى كلمة intricate (صعب التحليل، معقد). وللأسف فقد نحا «معجم أكسفورد» هذا المنحى. أمّا شكسبير فقد حمّل هذه الكلمة عدة معانٍ معا من (intrinsic) و (intrinse) فهي : حميم، وأليف، وجوهريّ، وسري، وخاص، وداخلي، وما يكون جوهر الشيء وصلبه، أي كلّ معاني عصره الفلسفية والطبية علاوة على معنى المعقد intricate والضمني involved، فما تؤديه الكلمة لا ينحصر بمعنى من هذه المعاني، بل إن قوتها تشملها جميعاً وتفيض عنها، وكما أن حركة يدي تستفيد من عضلات جسمي كافة وتكون مدعومة بها، كذلك تستمد العبارة قوتها من النظام الداخلي لاستعمالات الكلمات الأخرى في سياقات أُخر.

ملاحظة

إن كلمة استعمال (usage) نفسها توضح إشكالات التغير الذي يطرأ على المعنى. ويجب أن يكون من أهداف البلاغة الحديثة أن تسيطر عليها. وندرج هنا قائمة بمعاني كلمة استعمال تساعدنا على أن لا نقع في سوء الفهم :

1) المعنى الجامع، وهو كل القوى التي تستطيع أن تمارسها الكلمة، بوصفها أداة توصيل في كل المواقف وبمساعدة أية كلمات أخرى (بهذا المعنى ينفرد الاستعمال، دون شك، بالتحكم باللغة).

2) قوة خاصة تمارسه الكلمة في بعض المواقف المحدودة، وفي بعض الأنماط المحدودة من السياقات اللغوية، (غالباً ما يسمى هذا الاستعمال استعمالاً أومغزى، وهو ما يحاول أن يدونه المعجم في تعريفاته، باقتراح كلمات وجمل وعبارات بديلة لها قوة مماثلة).

3) مثال من الفقرة (1) يلجأ إليه في بعض المواضع، كما عند شكسبير، لبيان أن الكلمة يمكن أن تكون لها تلك القوة).

4) معنى يُفترض ثباته (خاص) يلازم الكلمة. وهذه فكرة مستقاة من (1) و(2) و(3) بتبنسيط مفرط وتصورمغلوط لعمل اللغة التي تُفهم

على أنها بناء الجملة ببناء معاني كلماتها كلا على انفراد، بدلاً من القول إنّ معاني الكلمات مستقاة من معاني الجمل التي ترد فيها. وهذا التصور المغلوط يُماثل بين العملية التي تكتسب بها الكلمات معاني محددة، والعملية التي تحدد بها طريقة إملاء الألفاظ. وهومصدر قدر كبير من التفسير المغلوط.

المحاضرة الرابعة

بعض معايير الكلم

كنتُ مهتماً في المحاضرة السابقة بإيضاح تواقف الكلمات بعضها على بعض في الخطاب، وتواشجها فيما بينها. وبدأتُ بحثي بإثارة الشكوك حول المذهب التقليدي في الاستعمال، فاتهمته بأنه يتناسى أن الكلمة هي دائماً عضو متعاون في جسم كلي شامل هو «القول» (utterance). ولذلك لايمكن التفكير في أن يكون للمعنى — في خطاب (discourse) اعتيادي وحر وسلس وغير تقني — استعماله الخاص الصحيح الثابت — أوعدد محدود صغير من الاستعمالات الصحيحة، ما لم نقصد «بالاستعمال» هنا الكيفية التي تتكاتف بها كلمة مع بقية الكلمات تكاتفا ناضجا، أعني ظلال المعنى الكثيرة التي تشترك مختلف القوى لإطلاق فاعليتها. ولقد قلت إن مذهب الاستعمال التقليدي عامَل اللغة وكأنها فسيفساء يوضع في التركيب والتفسير، كما توضع قطع ذات أشكال ثابتة وألوان محددة جنباً إلى جنب، أو يفصل بعضها عن بعض. في حين أن تواشج (interinanimation) معاني الكلمات هو في حقيقة الأمر لا يقل خطراً عن أي نوع من أنواع الإبداع العقلي. فالنوطة في القطعة الموسيقية تكتسب خصوصيتها وتحقق إسهامها عن طريق ما يحيط بها من نوطات أخرى فقط، واللون المرئي يكون ما هو عليه بفضل الألوان الأخرى مثل حجم الشيء ومساحته المرئية التي لا يتم

تفسيرها إلاّ بالبنية لأشياء أخرى مرئية في محيطه. وحيثما توجهنا بإدراكنا رأينا هذا التواشج (أو التنافذ، كما يطيب لبرغون Bergson أن يسميه).

وهكذا هو حال الكلمات بل أكثر، وما نجده من معنى لأية كلمة إنما يأتيها من معاني الكلمات الأخرى التي ترافقها. وعند نهاية المحاضرة وسّعتُ من هذه النظرة بحيث لا تكتفي بالكلمات الأخرى المنطوقة وحسب، بل لتشمل الكلمات غير المنطوقة أيضاً، التي تربطها بها مختلف الروابط، وربما كانت تمد لها يد العون دون أن نفطن لذلك، تماماً مثلما كان علينا لكي ندرك حجم شيء ما أو شكله أومساحته أن نأخذ بالحسبان كل ضروب الأفعال اللازمة للوصول إليه، أوالدخول فيه — على الرغم من أننا لا نفطن إليها — وصولاً إلى المعرفة الدقيقة به. وعوداً على بدء، فإنّ الصياغة الاشتقاقية (etymological) للوزن الصرفي « تفاعل » inter كفيلة بإيجاز القضية بكاملها.

أريد الآن أن أتطرق إلى نقطتين أوثلاث تدعم هذه النظرية وتوضحها قبل أن أستمرّ في مناقشة بعض المعايير أو الأحكام التي غالبا ما نصرّح بها للحكم على محاسن الكلمات أومساوئها. وأرجو أن تلاحظوا معي أنّ هذه المعايير — المتمثلة في الدقة، والحيوية، وحسن التعبير، والوضوح، والجمال — هي معايير مضللة وعديمة الجدوى ما لم نستعملها استعمالاً يعي تواقف الكلمات بعضها على بعض، وما لم نحترز من الانسياق وراء ما تعودنا عليه من نسبة معانٍ ثابتة للكلمات المعزولة عن سياقاتها. وبالطبع لا يوجد عزل كامل، فالكلمة المعزولة تماماً هي كلمة غير ذات معنى. وحين نعزل كلمة فإنما نعزلها بافتراض خلفية معيارية (Standard) وسياق خيالي مجرّد، نرى أنه قادر على

تجسيد المعنى وتمثيله. وإنني لأهاجم عادة الاطمئنان هذه في اقتراح سياقات لم يجر التثبتُ منها (في الخطاب العادي أو اللغة الاعتيادية أو غير ذلك). وهذه العادة من القوة بحيث يستعصي على أي شخص أن يتخلص منها دفعة واحدة وإلى الأبد. فالاعتقاد بأنّ للكلمات معاني مستقلة في ذاتها، والاعتقادات الأخرى الأكثر تعقيداً والمشابهة تأثيراً، هي ضرب من الشعوذة وأثر من آثار نظرية «الاسم» السحرية. وأرى من خلال تجربتي الشخصية أنّ الجهود المبذولة لا تفعل أكثر من تحريرنا منها للحظات أثيرة بين حين وآخر. وحين أستحثكم على نبذها واطراحها يعتريني شعور بأنني أقف موقف «زعيم باستو» ذاك الذي ــ كما روى كازاليس سنة 1861 ــ دعا قومه جميعاً ليحذرهم من الشعوذة، وكان يقنع نفسه ويقنعهم أيضا قائلا : «إن الشعوذة لا توجد إلاّ على أفواه من يتكلمونها، فهي لا تكمن في إرادة المرء أن يقتل أخاه، أكثر من إرادته أن يبعثه حياً من بين الأموات. ذلكم هو رأيي، فاتئدوا معشر المشعوذين الذين تسمعونني أتكلم »!

تأسيساً على ذلك قد أفلح في إقناعكم فتقتنعون معي بأن الكلمة المفردة التي تأتي معزولة عن بقية الكلمات المنطوقة أو المفترضة، ليس لها معنى في ذاتها، شأنها شأن أية رقعة ملونة في لوحة لا تكتسب حجماً أو مساحة ما لم توضع في إطار معين. ومع ذلك لا أتوقع أن سلوكنا سيتغير. لأن عادة الانسياق وراء الافتراض المضاد قوية أيضا. وأملنا كبير في أن نتئد ونتعلم الاعتدال في الاعتماد على الفرضيات.

يظهر التأثير السيء للافتراض ظهوراً فاضحاً مع الكلمات المجردة التي تدور حولها النقاشات النظرية العامة. وخارج العلوم الاختصاصية ــ حين نتحدث في السياسة، مثلاً، أو المجتمع أو السلوك أو حين نتحدث عن العلم نفسه، وفي جميع مباحث الفلسفة، بما في ذلك

علم النفس، وفي نقاشنا عن الفن والأدب واللغة والصدق والجمال والحق ــ في كل ذلك تغيّر مفرداتنا الرئيسية معانيها على نحوٍ متواصل مع كل تغير يطرأ على الجمل التي تندرج فيها والسياقات التي تولدها. ونحن جميعاً على استعداد كافٍ للشك في ذلك، على الأقل في ما يتداوله أصحابنا من حديث، إن لم يكن في حديثنا الخاص، وعلى استعداد لأن نرى، فيه سبباً رئيساً للحقيقة المؤسفة التي نرى أنّ هذه الموضوعات تكشف عن تطور بطئ جدًا ــ إذا ما قبلنا بالتقليعات السائدة ــ غير أن «مدى» هذه التغيرات الخادعة و«غايتها» غائبان عنّا بفعل الافتراض الذي أهاجمه، فهو يؤدي بنا إلى الاعتقاد أنّ التغير في المعنى خلل في الخطاب وعارض يؤسف له، بدلاً من كونه سمة من سمات اللغة.

ويتمثل هذا الافتراض في أن للكلمات، أو يجب أن تكون لها، معان ثابتة محددة، مستقرة، ومتواطأ عليها. ليت ذلك ممكن حقا. لكنه غير ممكن لسوء الحظ خارج لغات العلوم الاصطلاحية. ولهذا ففي أغلب الموضوعات التي تُعنى بها نقاشات الجمهور المثيرة، تغير الكلمات معانيها أيضاً. وبغير هذه التغيرات يفشل التفاهم، كما هو حاصل بيننا، حتى لو كان محصوراً على نطاق ضيق، فاللغة التي تفقد رقتها في المطاوعة تفقد أيضاً قدرتها على الصلاحية.

وليس العلاج أن نقاوم هذه التغيرات ونقمعها، بل أن نتعلم متابعتها. فهي تطرأ على صيغ متشابهة في كلمات مختلفة، أي إن لها اتجاهات متماثلة وأنماطاً مشتركة تمكننا التجربة من ملاحظتها والامتثال لها في الممارسة، باطمئنان يدعو أحياناً إلى العجب حين نتفحصه. وربما راودنا الأمل بأن تسمح لنا الدراسة المنهجية، مستقبلاً، أن نعقد مقارنة بين أنماط الغموض والانتقال المنتظمة وأن نصفها ونفسرها

بأفضل مما يفعله «معجم المصطلحات التقنية» المعاصر، مثلما نقارن الآن حجم التفاوت بين معرفتنا الحالية للكيمياء التي بشّر بها بيكون. وحتى في الوقت الحاضر لو اكتفينا من المعرفة المنهجية بجزء صغير من التغيرات نلاحظه على عجل فإن النتيجة ستكون مثل تلك النتيجة المستحصلة من تقديم جدول الضرب لأناس لا يعرفون إلاّ عمليات الجمع البسيطة. وبتوضيح كهذا، وترجمة مهاراتنا إلى مقدرة على الاستيعاب سيكون في متناولنا عصر جديد من الفهم الإنساني في التفكير. وقد لا يكون من الصعب القيام بالشئ الكثير بإزاء ذلك الآن. لكنّ ما يعترض طريقنا هو في الأساس «خرافة المعنى الخاص» (proper meaning Superstition) وما يترتب عليها من جهد يؤدي إلى المزيد من التشدد في حقول لا يناسبها التشدد.

تخدعنا هذه التغيرات أكثر حين تؤثر في الكلمات المجردة، فيكون من الصعب متابعتها بعد ذلك. لكنها تطرأ بالمقدار نفسه وبالتنوع ذاته على ما يبدو ظاهراً كلمات حية بسيطة، وكثيراً ما نتابع هذه الكلمات بدرجة كبيرة من السهولة بحيث لا نشك بوجود تغير فيها. إن كلمة (كتاب) ــ مثلاً ــ لا تقلق أحداً. ولكن قارنوا كيف أننا نستعمل هذه الكلمة فنميّز الكتاب من المجلة أوالجريدة، في حين أن أغلب الناطقين بالإنكليزية ومن غير المتعلمين إذا شئتم يطلقون على أية نشرة أسبوعية اسم كتاب. أوقارنوا بين معاني كلمة كتاب في الجمل التالية : (إنه مجلد هائل وليس كتابا)، و(إنه مفتون بكتابه)، و(كتابة الكتاب)، و(تجليد الكتاب) و(طبع الكتاب). و(تنظيم الكتب في الكشاف). في أي مثال من هذه الأمثلة غيّرنا معنى كلمة «كتاب» بحيث تتضارب هذه المعاني أحياناً، فلا أحد يستطيع أن يجلد الكتاب الذي أؤلفه من هذه المحاضرات، وما يطبع وما يجمع شيئان مختلفان

تماما عمّا أعمل على تأليفه الآن (أي مجموعة الأفكار في رأسي) رغم أنهما يلتقيان معه بطرق مختلفة.

إننا نتابع هذه التغيرات دون عناء لأننا معتادون عليها، لكننا لم نعتد على التغيرات التي تطرأ على الكلمات التأملية ذات الصبغة التجريدية العالية. وإنه لأمل مشروع وفرصة كبيرة للتطور العقلي أن نعتاد عليها جميعاً على حد سواء يوماً ما. أعنى أن ذلك هو في الأساس غاية التربية اللغوية المتقدمة ومسوغها، ولا مسوّغ لها غير ذلك، وعندئذ يكون الجواب الأمثل للسؤال المتعب : (لماذا نقلق أنفسنا به ؟) هو أن نكتشف ما نفكر وما يفكر الآخرون معنا به.

لقد أشرت عند نهاية المحاضرة السابقة إلى أنّ الكلمات تكتسب معانيها بتأثير كلمات أخرى قد لا نكون فكرنا بها، لكنها تتضافر للسيطرة عليها لا شعوريا، وخلصت إلى نتيجة مفادها أنّ الكاتب الكبير يحقق غايته حين يجعل العبارة المفردة تندرج في سلسلة لغوية طويلة أو تنحرف عنها. وبالطبع، فإنّ هذا إذا صحّ، سيكون دليلاً على بطلان «خرافة المعنى الخاص». ونستطيع أن نصف الكلمة المفردة بما وصف به دن الجمل المفردة حين قال : «إن جمل الكتاب المقدس تشبه أهداب الكنباث(7). فهي تلتقي عند أصل واحد للجمال والقوة، لكنها تتساقط واحدة إثر الأخرى، فلا تكون ذات جدوى إلاّ في الشراك والأحابيل». وينبغي أن نحترس من تساقط الكلمات واحدة إثر الأخرى، حين تغرينا اللغة بالحكم على الإضافات الجديدة التي تمّ إدخالها فيها، لأنّ هذه الإضافات يمكن أن تعزل بسهولة، وهي تحمل معها سياقاً مفترضا أقل استتاراً. وما من شيء يمتحن أفكارنا في اختيار الكلمات أفضل من الأسباب التي تدعونا لقبول كلمة جديدة أو رفضها، وما من شيء أفضل من ذلك لعرض مذهب الاستعمال. فاللغة

الإنكليزية تتسارع خطاها بطرق مختلفة أكثر من آي وقت سابق منذ العصر الاليزابيثي. وحاليا يقدر عدد الكلمات الجديدة في الإنكليزية حتى بالنسبة للشرائح المحافظة من الشعوب الناطقة بالإنكليزية في أنكلترا، بما يزيد على ثلاثين كلمة تدخل في الاستعمال سنوياً، بصرف النظر عن مصطلحات التجارة والعلوم الأخرى. وقد عبر عدد كبير منها المحيط الأطلسي بحيث يصح القول إن الإنكليزية فتحت ذراعيها ترحيباً بها.

لكن الكلمات الوافدة حديثا ليست مقبولة دائماً وأبداً، ليس عند القلة من اللغويين الذين يعترفون بأنّ لهم أسباباً ضمنية تسند آراءهم فيها بالتأكيد، لأنّ الكلمة الوافدة تبعث الكثير من الشكاوى والاعتراضات في العادة. وحري بنا أن ندرس هذه الشكاوى لما تسلطه من ضوء على الافتراضات السائدة عن اللغة.

لنأخذ أولا الشكاوى التي تتردد في الأعمّ الأغلب ضدّ الكلمات الجديدة التي تصاغ في العلوم، أي ضدّ تلك الكلمات التي تنتقل من الاستعمال العلمي إلى الاستعمال العام. وغالباً ما يُشتكى من قبح هذه الكلمات أو صعوبة النطق بها أو طولها، وأنها ليست تسميات بل أوصاف مصنوعة أو تفسيرات موضوعة. وقد يبلغ التعصب حدا يخضع له المعجميّ نفسه. فمثلا، لو قلّبتم «معجم أوكسفورد الوجيز» بجزئيه، فلن تجدوا كلمة extraversio (انبساطية) أو extravert (انبساطي) ولا كلمة introversion (انطوائية) أو intro-vert (انطوائي) بالمعنى الذي استخدمهما به يونغ Jung، على الرغم من أن هاتين الكلمتين شائعتان في الاستعمال إلى حد بعيد.

لكن ماذا تعني هذه الشكاوى ؟ وما نوع القضايا التي تصدر عنها ؟ فيما يخص عدم الاطمئنان ـــ أي عدم التثبت من طريقة لفظ

الكلمة ـــ في كلمة epistemology، هل يوضع النبر على المقطع الأول أم الثاني أم الثالث أم الرابع ؟ يلاحظ السيد جيمس موراي James Murray وقد سأل واضعي الكلمات حول طريقة لفظها، أو كيف تريد لها أن تلفظ، أن الإجابة كانت في مختلف المناسبات «إنه لم يفكر بطريقة معينة، بل إنه يترك للناس أن يلفظوها كما يشاؤون، أو للمعجم لتحديد الطريقة (الصحيحة) للفظها».

يشكو السيد جيمس من أن ذلك يقلب الموازين التي يأتي الكلام بموجبها أولاً. غير أن واضعي الكلمات المنذهلين من أسئلته براءٌ من ذلك، إذ لكونهم مصادر للاستعمال فهم يعرفونه أكثر مما يثقون به. هم يعرفون أن للجيد والرديء من الكلمات معايير أخرى. والطريقة التي تلفظ بها كلمة معينة، تتطلب في الأقل جزئياً، العودة إلى معرفة طرق لفظ كلمات أخرى في اللغة. وهذا دون شك من صميم عمل المعجمي، وليس الفيلسوف أو عالم النفس. غير أن المعجميّ نفسه يقع لسوء الحظ، في مثل قضايا اللفظ وقضايا التفسير أيضاً تحت رحمة نظريات الاستعمال الساذجة. وبسبب وطأة المسؤوليات فإنه ينكبّ على مهمة التدوين الصوتي للألفاظ التي استحدثت. أو يلجأ إلى صنوف مذهب الاستعمال الذي أستطيع أن أسميه هنا بأنه الخضوع لـ «روح النادي».

فالخضوع لروح النادي خاصة هامة من خواص مذهب الاستعمال. فهو في الأساس يجعل من سلوك اللغة تابعاً لسلوك مجموعة خاصة من الناطقين بها. ولو أنك كنت عضواً في ناد معين لكنتَ ملزماً بالتصرف بطريقة معينة، ما دمت عضواً هناك، ومضطراً أيضاً لعدم التصرف بطريقة أخرى. وسيكون تحديد ما لن تفعله أسهل عليك بكثير من تحديد ما ستفعله. كذلك الحال في استعمال اللغة،

فأنت حين تستعملها تنخرط في جماعة منتخبة، أي جماعة ترى أنها تمثل الناطقين الأكفاء بتلك اللغة. والانحراف عن عاداتها اللغوية «خطأ» وعدول عن الصواب (incorrectness) يطاله القصاص الاجتماعي. ولايهم إطلاقا أن يكون ما تفعله أحسن أو أسوأ من عاداتها الجماعة. إذ يكفي أن يكون مختلفا لتدان.

وهذه الصورة الخاصة من الصور تحكم الاستعمال، التحكم الاجتماعي المتعالي على اللغة كلها، شاملة وصارمة بوضوح. وإحدى مهمات البلاغة المهذبة هي أن تضعها موضع السؤال، فترى هل تعنى باللفظ أم بالمعنى والتفسير. وأنا معنيّ ـــ الآن ـــ باللفظ، غير أني أود أنّ أؤكد أن لما أقوله عن اللفظ ما يوازيه في أشكال المعنى. وصوره المخصوصة، بحيث يصح عليها ما يصح عليه. وهكذا فإن روح النادي في بريطانيا جعلتنا نقول : آسف (I am Sorry)، بينما يقولون في الخارج : أرجو المعذرة (I beg your pardon). وبعيدا عن «روح النادي» فقد تكون العبارة التي تطلقونها أنتم هنا أفضل الاثنتين، بريئة من خشية الخلط بين الهام والتافه. وفي تقديري يجب أن لا تتهاون جهود التشكيك في جدوى «سيادة روح النادي» بل يجب أن تكون قاسية ومتطرفة بقسوتها. وأسباب وضعها موضع الشك اجتماعية، مادامت هي نفسها سيادة اجتماعية. لقد كان هذا التحكم المتعالي مفيداً في الماضي للجماعة اللغوية بكاملها، وليس كما هو الآن لأعضاء النادي وحسب ممن يجدون فيه مصدر إحساس بالامتياز على مواطنيهم. ويعود هذا الاستعمال للفروق اللغوية بوصفها سلاحاً في الصراع الطبقي في بعض جوانبه المهمة إلى القرن السابع عشر. ففي عصر شكسبير كانت ملاحظة الفروق اللغوية شيئا أقل إزدراءً وأكثر فكاهة، ولم تكن مصدر استهزاء وسخرية، لأن طبقة اجتماعية جديدة كانت تدعو القرن الثامن عشر إلى أن يعد أساليب الاعتناء باللفظ والتعبير

معياراً للتميز بين السيد النبيل وعبده، وبين السيدة ووصيفتها. وكذلك الحال مع الجهود التي بذلت لتوحيد الإملاء، إذ كانت جانبا خضع للتغير نفسه. لقد صار، إذن، همّ التصويب (Correctness) (بالمعنى الذي أراده روح النادي) متسلطاً على تجار كتب النحو (وستيل مثال على ذلك) من أولئك الذين زودوا شرفاء المحتد الجدد بدروس في كيف لهم أن يبرهنوا بوضوح على شرف محتدهم.

ذلك هو الجانب المخجل في «سيادةروح النادي» غير أنّ هناك جانباً أكثر قيمة. ففي القرن الثامن عشر حين كان المثقفون قلة من الرجال، وحين كانت التربية الشائعة من طراز واحد نسبياً، أعطى هذا النوع من التصويب سمة يمكن الاطمئنان إليها للثقافة بمعناها الأعمق. وقد تضاعف عدد المتعلمين الآن عشر مرات عمّا كان عليه في السابق. غير أنّ ما هو أكثر أهمية أن تربيتنا في العلوم الإنسانية لم تعد من طراز واحد. ولو سألنا عن تعريف العلوم الإنسانية الآن لكان الجواب : «كل شيء يفيد أي شيء لفعل أي شيء في مركز المدينة أو المتحف البريطاني». وعندئذ يتضح أن «سيادة روح النادي» قد كفت عن ضمان أي شئ مهمّ في ما يخص عمق ثقافة من يتكلمون صواباً أو خطأ، وفقاً لقوانين النادي أو خلافها.

لكنّ هذه الروح مازالت قوية، وإلاّ فما مسوّغ هذا العدد الكبير من المحاضرات التي تلقى في العديد من الكليات ؟ أعتقد أنها تلقى لتضمن اطلاع من يحضرونها على لفظ أسماء الأعلام الإيطالية والإغريقية. بل إن القراءة الواسعة في الترجمة النثرية للأعمال الكلاسيكية لا تستطيع أن تعصمنا من الأخطاء الشنيعة كأن نقول : (صولوام) أو (بني لوب) أو (هيرمي وان) ومازلت أذكر شاباً مثقفاً ذاتيا من مانشستر باغتني بحماسة بالغة ليخبرني في

العطلـة أنه أصبح ضجراً من دانت وغوث، ولا اعتقد انه كان من الممكن أن يقرأهما بشئ من الأصالة لو أنه عرف أنه يقرأ دانتي وغوثه حقا.

لقد تحدثت ما يكفي عن دعوات روح النادي. وينبغي أن أنتقل إلى الشكاوى المتعلقة بالمصطلحات العلمية الجديدة. لقد قال جيرمي بنتام : إن «الدقة وحسن الأداء» يستحقان أن يصاغا بكلمة جديدة. ربّما اعتقدنا أنه مذهب شاذ جاء به رجل هو نفسه صاغ مفردات كانت بمثابة مفاتيح في تحليل الاستعارة — التي اجتهد في تطويرها — مثل «التنميط الأصلي» (Archetypation) للكشف عن الأساس الذي يقوم عليه تغير المعنى وملء العبارة للكشف عن ذلك. لكن ماذا بخصوص الدقة بصفتها إحدى الحسنات ؟ ألا ينبغي أن نصف بتلك العبارة المفيدة : (بعض الأشياء الأخرى المساوية) ؟ ثم ألا نتفق على أنّ الأشياء الأخرى لا يمكن لها أن تساوي الكلمات أبداً، وأنّ طول الكلمات غالباً ما يكون (ضمن حدود طبعاً) من حسناتها ؟ وأنّ معظم المعاني التي ولا سيّما المعاني التي تحملها أمثال هذه الكلمات العلمية معقد، وأن من مزايا الكثير من الكلمات العلمية أنها تبدو علمية ويجب أن تذكّرنا بأنها تنتمي إلى نظام. وتعتمد على افتراض ينبغي أن نحسب له حساباً. وهنا نعثر على جواب لمن يشتكي من كون هذه الكلمات (الانطواء والانبساط على سبيل المثال) هي شروح وليست أوصافاً. وغالباً ما يقال إننا نحتاج في الأشياء المألوفة إلى أوصاف تصفها لا إلى شروح تفسرها. نعم هذا صحيح إذا كانت الأشياء مألوفة حقا، غير أن خطورة الأوصاف المجردة حين لا تكون الأشياء مألوفة جدا، أعني خطورة النعوت التي لا تقدم أدنى وصف للموصوفات، في غنى عن الإشارة.

فلننتقـل، إذن، إلى نمط آخر من الشكـاوى ــ وهي الشكـوى من كون هذه الكلمـات ثقيلة وقبيحـة في ذاتها. لقد وجدت بنفسـي ودون رجوع إلى أي مصدر، بأنه حيث تكون الكلمات القديمـة الجيـدة مثل عقـل (mind) وفكـر (thought) صافية ودقيقة وجميلـة، فإن كلمة مثل علم النفس (psychology) ثقيلة وغيرمتفق عليها. ما مدى صحة هذه الشكوى ؟ وهل هي شكوى من شكل الكلمـة أم من بعض استعمـالاتهـا ؟ لنتفق على أن بعض اشتقـاقـات psychology يمكن الاعتـراض عليها، لأنها غـامضـة بشكـل مزعـج وبلا ضرورة، من ذلك مثلاً حين يلح البعض في الكلام أو الكتابة على قول : علم النفس عند شكسبـير (Shakespers - psychology) دون أن يوضح لنا هل يقصد : (1) نظريات شكسبـيرعن العقل الإنساني، إذا كانت موجودة، (2) الافتراضات التي وضعها شكسبير لا شعورياً عن التطوّر العقلي، (3) ما نستنتجه نحن عن العمليات العقلمة من أعمال شكسبـير، (4) وحتى لا نبتعد كثيراً عن هذه الاحتمالات، الطريقة التي اشتغـل بها عقل شكسبير. تقلُّب أحوال الكلمة هذا نمطي ومذموم، فهو يعـرّض الخطاب للخطر، ويضعف ثقة المتكلم أو الكاتب بلغته، لكن مثل هذه الاستعمالات لكلمة psychology ليست مصدراً للشكوى من الكلمة حين تستعمل للدلالة على الدراسة النظرية الخاصة بعمل العقل البشري، أو من اشتقاقاتها حين يُعنى بإبرازها السياق. إن الشكوى في عبارة : shakespear's psychology إنما من التحكم السياقي المتعسف. ومن أجل السيطرة على استخدام الكلمات، آخذين بنظر الاعتبار ما يبدو على مـوضوع علم الـنفس من ثقل، فإن كلمة ثقيلة قد يكون لها ما يزكيها إذا جاءت في سيـاقها المناسب.

ومع ذلك، فقد تتلوث مثل هذه الكلمة عند الكثيرين حتى في استعمالاتها الأصيلة حين تقترن باستعمالات مذمومة، وهذه حالة

شائعة ــ خاصة مع الكلمات الجديدة ــ ومنطقية فيما أظن. ويمكن توضيحها بمثال عن كلمة colorful. إذ إنّ هناك هوة شاسعة تفصل هذه الكلمات ــ وكلمة tasteful أيضا ــ عن الكثير من الحلقات في الإنكليزية. لقد دخلت كلمة colorful عام 1890 تقريباً. وعلى مبدأ (العصا لا تصلح إلا لضرب الكلب). فقد تعددت الأسباب الداعية إلى النفور منها، فهي هجينة (hybrid)، ومبتذلة، ونحن لانقولsoundful وlightful، وإذا استعملناها فسرعان ما سنستعمل lifeful وLaughterful، ونحن نستعمل عبارة (Full of color) التي تنوب عنها، إلى غير ذلك. لكن ليس في هذه الاعتراضات ما يصمد أمام الفحص، لأن في لغتنا الكثير جدا من الاستعمالات الهجينة، جميلة كانت أو قبيحة، قارنها بكلمتي (joyful وbeautiful) وهما هجينتان أيضاً، أمّا الاعتراضات الأخرى فمستقاة من المماثلات (analogies) ويمكن النظر فيها على نحو ملائم لو تابعنا المماثلات إلى مدى أبعد. وسنرى أننا لو عملنا ذلك لكنا قد تأملنا المواقف نفسها، حيث أسندت الكلمة بكلمات أخرى كما رأينا عند حديثنا عن المورفيمات، وسنرى أن المماثلات التي تهم ليست تلك التي تبدو واضحة للفقيه اللغوي (philologist)، ولكن المماثلات التي تؤثر حقاً في بعض الحالات في إسناد أو توجيه استعمالنا للكلمات.

أما الإعتراض الآخر على الكلمات المشابهة لكلمة colorful فيخص الابتذال، وهو اعتراض يتعرض له عدد كبير من الكلمات الجديدة لأنها تجري على ألسنة أناس يحلو للمعترضين أن يصفوهم بالابتذال ومع أن انتشار الكلمة على ألسن العوام هو الشرط الأول لاندراجها في اللغة، فإن كلمة (عوام) تعني عند البعض ما تعنيه كلمة (ابتذال). لكن كلمة مثل colorful يمكن أن تستخدم بطرائق مختلفة

ومعان مختلفة أيضاً، ويعتمد الحكم عليها على مقارنة بعض هذه المعاني ببعض. ونحن لا نستطيع أن نحكم على حيوان يمشي على أربع ما لم نعرف قبل ذلك هل هو حصان أم كلب. ولذلك يجب أن لا نحكم على كلمة دون أن نتأمل ضروب الاستعمالات التي تختص بها، ودون أن ننسى وضع الأشياء في أماكنها المناسبة. إذن فما المزايا الخاصة بكلمة فضفاض colorful ؟

أولاً أريد أن أصرف انتباهكم إلى الإدماج الساخر[4] (ironical implication) الذي قد تنقله، فهي شأنها شأن العبارات hard — working (أشغال شاقة) وpainstaking (اجتهاد وكد) وdoes his best (يبذل قصارى جهده)، وعبارات أخرى مماثلة تذكرها الكتب المدرسية، قد توحي بأن هذا الشئ إذا كان أحسن، فيمكن أن يصح على شئ آخر.

وهكذا إذا وصفنا أسلوباً نثرياً، أو إنتاجاً مسرحياً بأنه colorful. وتركناه عند هذا الوصف، فقد يكون هذا الوصف أسلوباً مهذباً، وبالتالي مؤثراً جداً للطعن فيه بمديح خافت. وهو مؤثر جدا لأنه يوحي بأنّ أولئك الذين يكتفون بمدحه مدحاً مباشراً لا يقدمون دليلاً نقدياً مقنعاً. هناك بالطبع استعمالات كثيرة لكلمة colorful تخلو من مثل هذا الإدماج الذي يفرض، مثلا، أن انطواء الشيء على لون هو كل ما نستطيع أن نسأل عنه، وحيث لا يقصد من وراء ذلك احراساً ساخراً (ironical reserve)، أو استخفافا (dispargement). حقا، إن هناك استعمالات مقبولة أخرى. وإنّ الخليط بين الاستعمال المقبول والاستعمال المرذول سهل ووارد، وهذا ما يجعل الكلمة تستقر في سياق خاص.

وفي تقديري، فإنّ هذا الخلط هو أصل النفور من الكلمة. فلو استعملت الكلمة استعمالاً مقبولاً حيث يتطلب السياق إدماجاً ساخراً لأوحى هذا الاستعمال بافتقار المستعمل إلى الحصافة، وما لم نحلل الموقف فقد نسمح لأنفسنا بأن نصم الكلمة نفسها بذلك، ولو لم تكن كلمة beautiful (جميل) قديمة ومفهومة تماماً، لتوقّعنا أن يحصل لها ما حصل لأختها. فالاستعمال الرخيص يجعل كلمة beautiful قرينة بالاستعمالات الرخيصة فقط. وحين يتكلم الناس على الطعام الشهي Food beautiful تعتري البعض رعدة واهتزاز. وحين يجعل السيد إليوت Eliot في «الأرض الخراب» إحدى شخصياته تقول :

Well, Thal Sunday Albert Was Home, They Had a hot gammon
And they asked me in to get the beauty of it hot.

«حسنا حين عاد ألبرت إلى بيته يوم الأحد، كان لديهم سمك حار وطلبوا مني أن أتذوق (جماله) حاراً».

فإنه يستفيد من تلك الرعدة وكل أصدائها الشجية وتذبذبها بين هذه المناسبة وما يغايرها. وهذا هو الاستعمال الحقيقي للغة الذي تتطلبه الكتابة الدرامية أكثر من غيرها بالطبع. لأنها لا تعتبر الكلمة وعاء لقوة ثابتة واحدة، بل وسيلة للإيقاع بقوة أخرى في مواقف أخرى تلتقي وتتفاعل في نظم متواشج.

لقد أخذت كلمة فضفاض (colorful) نموذجاً، والمشكلات التي تثيرها مشكلات موضعية، وربّما تكون مؤقتة وغير مهمة، لكننا لو تابعناها لقادتنا إلى أكثر المشكلات التي تحيط باختيار الكلمات، بل قد تساعدنا على الكشف عن معظم مشكلات علم الجمال. والخطوة

الأولى والطويلة في جماليات اللغة هي أن ندرك أنّ من العبث أن نسأل عن كلمة ما : أهي جميلة ؟ ما لم نكن مستعدين حقاً للسؤال : ماذا نفعل في ظلال معناها المتنوعة ؟ ويجب أن تحصل خطوة مشابهة وموازية في أي فرع من فروع علم الجمال. ويمكن لمناقشة أسباب اختيار الكلمات — التي غالبا ما تبدو مبادلة تافهة للنزوات — أن تكون مدخلاً لنظرية الاختيارات كلها. ولا يزال فن التحول بهذا الموضوع من موضوع يناقش حول مائدة الشاي إلى حقل مركزي للتربية بانتظار أن يكتشف. ولكن كلما فهمنا أفضل الموقع الذي تحتله الكلمات في حياتنا، ازددنا استعداداً لقبول فكرة أن اختيارها هو الوسيلة الأكثر إقناعاً في التفكير بمبدأ اختياراتنا كلها.

المحاضرة الخامسة

الاستعارة

لم يكن غير أرسطو الذي قال في «فن الشعر» : «إنّ أعظم شئ هو القدرة على صياغة الاستعارة»، واستأنف : «وهذا وحده لا يمكن أن يُنقل إلى الآخر لأنه علامة العبقرية. إنّ صياغة استعارات جديدة يعني القدرة على رؤية التشابهات». لا أدري مبلغ ما كان لهذه الملاحظة من تأثير، أو مدى مسؤولية النص في شعورنا بأنّ ما نقوله أمر من البديهيات. غير أنّ تأمل هذا النص للحظة يكشف من البداية عن الحضور الفاسد لثلاثة افتراضات، منعت في ذلك الحين دراسة «هذا الشئ العظيم» من أن تأخذ مكانها الذي تستحق ضمن دراساتنا، كما حالت بينها وبين التطور نظريا ومحليا في الاتجاهات المفتوحة لها.

الافتراض الأوّل : إنّ القدرة على رؤية المتشابهات موهبة يمتلكها بعض الناس دون بعض. وواقع الحال أننا نعيش ونتكلم من خلال رؤيتنا للمتشابهات ولولاها لما قيض لنا أن نبقى، وعلى الرغم من أنّ بعض الناس قد يملك مقدرة على رؤية «المتشابهات» أكثر من غيرهم، فإنّ الاختلاف بينهم في الدرجة فقط. ومن المؤكد أنه يمكن معالجة ذلك إلى حدّ ما باتباع الأساليب الصحيحة في التعليم والتدريس.

أما الافتراض الثاني : فينكر ذلك ويرى أنه على الرغم من أي شئ آخر يمكن تعليمه، فإنّ هذا الشئ (الموهبة على صياغة الاستعارة)

لا يمكن نقله إلى الآخرين. لستُ أدري إلى أي مدى كان أرسطو جاداً في أن يعني ما قاله، أو أية موضوعات تعليمية كانت في ذهنه عندما قال ذلك. إلاّ أننا لو تسنى لنا أن نحصل على ذلك المقدار المحدّد من ملكة الاستعارة، لرأينا أنّ مثل هذا التباين أو الاختلاف لا يقوم على أساس. فنحن كأفراد نكتسب قدرتنا على الاستعارة مثلما نتعلم أيّ شئ يميّزنا كبشر. وينتقل إلينا ذلك كلّه عن طريق الآخرين مع اللغة التي نتعلمها وبوساطتها، اللغة التي لا تكون ذات عون لنا إلا عن طريق القدرة على الاستعارة التي تقدمها لنا. ويقودنا هذا إلى الافتراض الثالث، وهو الأسوأ، الذي يرى أنّ الاستعارة شئ خاص واستثنائي في الاستعمال اللغوي، أي إنها إنحراف عن النمط الاعتيادي للاستعمال، بدلاً من أن تكون المبدأ الحاضر أبداً في نشاط اللغة الحر.

لقد عولجت الاستعارة في تاريخ البلاغة على أنها لعب بالألفاظ ومناسبة لاستغلال خصائص اللغة واستعمالاتها المتعددة، وعلى أنها شيء يوضع مكان شئ آخر في بعض الأحيان، إلا أنه يتطلب مهارة غير اعتيادية وحذراً. باختصار، أُعتبرت الاستعارة جمالاً أو زخرفاً أو قوة إضافية للغة، وليست الشكل المكوِّن والأساس لها.

ومن الحق أنّ نقول أن بعضاً من الكتّاب يمضي في تأملاته في الاستعارة إلى حد أبعد. وأردّد هنا ملاحظة «شيلي» في أن «اللغة في جوهرها استعارية» أي إنها تغيّر العلاقات غير المدركة قبلاً للأشياء وتعمل على إدامة هذا الإدراك أو الفهم. وبمرور الوقت تصبح الكلمات التي تمثلها رموزاً وعلامات لأقسام أو أصناف للتفكير بدلاً من أن تكون صوراً لأفكار متكاملة. ومن ثمّ إذا لم يظهر شعراء جدد يعيدون خلق الارتباطات المتخلخلة، فستصبح اللغة ميتة بالنسبة إلى أهداف التعامل الإنساني النبيلة. وهذا رأي لامع على الرغم من أن رجال

البلاغة لم يتأملوا في مضامينه بعد. ولم يكن شأن الفلاسفة في هذا الصدد أفضل من أولئك، على الرغم من أنّ مؤرخي اللغة عرفوا جيداً منذ أمد أننا لا نستطيع أن نجد كلمة أو وصفاً لأيّ من العمليات الذهنية التي لو قدّر لتاريخها أن يكون معروفاً، لم تكن في الأساس منقولة استعاريا من وصف لحدث ماديّ.

إنّ «جرمي بنتام» بصفته خلف «بيكون» و«هوبز» هو الوحيد الذي أصرّ بأسلوبه في التنميط الأصلي على استنتاج واحد وهو أنّ العقل وكلّ أفعاله خيال. وقد ترك لكوليرج وبرادلي وفاهنجر الإشارة إلى استنتاج أبعد، هو أن المادة ومغامراتها، وكلّ موضوعات التأمل الثانوية، ذات المنزلة المختلفة بسبب اختلاف الاستعمال، هي الأخرى خيال أيضاً. وإنني لأنظر لحظة إلى هذا المأزق الذي قد تقودنا إليه أية دراسة جدية للاستعارة. وقد تكون الخشية منه سبباً في عدم قيام دراسة بهذا الصدد، وفي أن ينحصر نشاط البلاغة تقليدياً في بعض القضايا السطحية، إلاّ إذا كنا مستعدين لأن نسبر وبكل قدراتنا أعماق التفاعل اللفظي الذي يعمل على إظهارها.

إنّ الاستعارة هي المبدأ الحاضر أبدا في اللغة، وهذا ما يمكن البرهنة عليه بالملاحظة المجردة. فنحن لا نستطيع أن نصوغ ثلاث جمل في أي حديث اعتيادي سلس دون اللجوء إلى الاستعارة، كما ستلاحظون خلال هذه المحاضرة. وحتى في اللغة الجافة للعلوم الراسخة لا يمكننا أن نستغني عنها دون أن نعاني من بعض المصاعب. وفي الموضوعات ذات الطبيعة شبه الفنية، مثل علم الجمال والسياسة وعلم الاجتماع والأخلاق وعلم النفس ونظرية اللغة وغيرها، فإنّ الصعوبة الأساسية الدائمة التي نواجهها هي أن نعرف طريقة استعمالنا إياها، وكيف أنّ كلماتنا تحوّل معانيها على الرغم

من الافتراض الذي يرى أنّ الكلمات ذات معان ثابتة محددة. وفي الفلسفة، قبل غيرها، لا يمكننا أن نخطو بثقة دون أن ندرك، إدراكاً صارماً، الاستعارة التي قد نستعملها نحن ويستعملها جمهورنا. وعلى الرغم من تظاهرنا بتجنب استعمال الاستعارة، فإننا نفعل ذلك عن طريق كشفها فقط. ويصدق هذا أكثر ما يصدق، كلما كانت الفلسفة أكثر صرامة وتجريدا. وكلّما مضينا في التجريد أكثر ازداد تفكيرنا اعتماداً على الاستعارة إلى درجة عدم الإغراق بذلك. إن الاستعارات التي نتجنبها توجّه تفكيرنا كتلك التي نتقبلها. ويصحّ هذا على أيّ كلام تكون فيه معرفة ما نقوله أصعب من معرفة ما لا نقوله. وفي الفلسفة تحديداً، أؤمن مع برادلي بأنّ تظاهرنا بأننا نفعل شيئاً من دون استعارة ما هو إلا خدعة تحتاج إلى ما يسوّغها. ولكن إذا كان ذلك حقيقة، فإن ترديدها أسهل من القبول بنتائجها أو تذكرها.

إن الفكرة التي ترى أنّ الاستعارة حاضرة دائماً في الكلام يمكن أن تكون مقبولة على الصعيد النظري. ولو استعدتم ما قلته في محاضرتي الثانية عن النظرية السياقية في المعنى، وعن المعنى بصفته (فاعلية بديلة) للعلامات التي عن طريقها تتجمع المجردات — أو الجوانب — التي هي في الواقع أجزاء غائبة للسياقات المختلفة في وحدات جديدة، ستدركون أنّ الكلمة اعتيادياً هي بديل (أو واسطة) لا لانطباع ماضٍ متميز واحد فقط، بل لمجموعة من الظواهر العامة. إنّ هذا تفسير موجزٌ لمبدأ الاستعارة، وفي أبسط التشكيلات (الصياغات) فإننا عندما نستعمل استعارة ستكون عندنا فكرتان لشيئين مختلفين تعملان معاً، وتستندان إلى كلمة واحدة أو عبارة واحدة يكون معناها حاصل تفاعل هاتين الفكرتين.

يقول الدكتور جونسون :«إنّ التعبير الاستعاري سمة رفيعة من سمات الأسلوب عندما يستعمل بشكل حسن لأنه يعطيك فكرتين في فكرة واحدة». وهو كما ترى ملتزم بالنظرة التقليدية المحدودة للاستعارة. امّا بالنسبة لهذه السمة الرفيعة في الأسلوب التي تعطيك فكرتين في فكرة واحدة، فإنّ هذا يعتمد على ماتفعله كلّ فكرة في الأخرى، أو ما تفعله الفكرتان مجتمعتين فينا. وعندما نتأمل في الأمر ملياً سنجد تنوعاً هائلاً من هذه الأنماط من التفاعل بين الأفكار المتجاورة، كما أسميها، أو بلغة النظرية السياقية في المعنى، بين الأجزاء المختلفة الغائبة، أو جوانب السياقات المختلفة لمعنى الكلمة. وفي التطبيق العملي، فإننا نميز بمهارة فائقة بين أنماط هذا التفاعل، على الرغم من أن مهاراتنا تختلف من واحد لآخر.

لقد كان الإليزابيثيون، مثلاً، أكثر منا مهارةً في استعمال الاستعارة في القول والتفسير، وهي حقيقة جعلت من ظهور شكسبير أمراً ممكناً، وضاقت هذه المهارة في القرن الثامن عشر، فاقتصرت دفاعاً عن وجودها على أنماط معينة محدودة، وثار القرن التاسع عشر على هذه الأنماط وتخصص في أنماط جديدة. أمّا في أواخر القرن التاسع عشر، وفي جيلي أنا، فقد حاولنا أن نتخلص من هذين النمطين معاً. وهذا في رأيي منهج لإعادة صياغة ثنائية الكلاسيكي ـــ الرومانسي يمكن أن يكون تجربة مثيرة للاهتمام. لكنّ مثل هذه المعادلة لا تتحقق وتكتمل دون نظرية متطورة وجيدة عن الاستعارة أكثر مما عندنا الآن.

تلاحظ النظرية التقليدية أنماطاً قليلة من الاستعارة وتحصر المصطلح ببعض هذه الأنماط، ولذلك تجعل الاستعارة مسألة لفظية، أي مسألة تحويل أو استبدال للكلمات. في حين أنها في الأساس استعارات

وعلاقات بين الأفكار. إنها عملية تبادل بين النصوص. الفكر استعاري وهو يعمل بوساطة المقارنة، ومنها تنبثق الاستعارات في اللغة ولتطوير نظرية الاستعارة لا بدّ أن نتذكر هذا، ونعير اهتماما أكيداً إلى المهارة الفكرية التي نمتلكها، دون أن ننتبه إليها باستمرار. علينا أن نترجم أكثر مهاراتنا إلى علم قابل للنقاش. فتأملوا جيداً فيما صرنا نفعله بحذق بالغ، وحوّلوا المدركات الضمنية إلى تمييزات صريحة.

وحين نفعل ذلك سنجد أن كلّ الأسئلة المهمّة في تاريخ الأدب والنقد تكتسب أهمية جديدة وعلاقة أوثق وأمتن فيما يخص الحاجات الإنسانية. وعندما نسأل كيف تعمل اللغة، فإننا في الواقع نسأل كيف يعمل الفكر والشعور وكلّ أنماط النشاط الذهني، كيف نتعلم أن نعيش وكيف يمكن أن ننقل ذلك الشيء العظيم، أعني ملكة الاستعارة، إلى الآخرين. وهو عظيم لأنه في حقيقة الأمر، الملكة التي نحيا به على الرغم مما يقوله أرسطو.

ولكي نحقق الفائدة المرجوّة، علينا أن نتذكر مع «هوبز» «انّ كل التأملات هي إنجاز لفعل ما أو شيء ما يجب عمله»، ومع «كانط» الذي يقول : «لا نستطيع أبداً أن نطلب من العقل المجرّد العملي أن يخضع للعقل التأملي، أونقلب نظام الأشياء بعملنا هذا، ما دام كل اهتمام في النهاية شيئاً عملياً، وحتى العقل التأملي إنما هو غقل مشروط ولا يكتمل إلا في الاستعمال العملي». وما دام لنظريتنا جذور في الممارسة العملية، فيجب أن يكون لها ثمارها في المهارة المتطورة المحسنة. يقول الصوفي : «أنا الطفل الذي أبوه ابنه، وأنا الخمرة التي جرّتها الشجرة» موجزاً بذلك عملية التأمل كلها التي لا تغفل صلب الحقيقة.

كان ذلك مدخلاً طويلاً بعض الشيء، أو تهيئة لوضع نظرية الاستعارة في مركز أفضل من ذلك الذي كانت تحتله في البلاغة التقليدية. وقد آن الأوان لأن نهبط من تلك التأملات العالية لنفحص بعض الخطوات اليسيرة في التحليل. وقد يحوّل هذا مهاراتنا في الاستعارة إلى علم واضح سهل.

الخطوة الأولى أن نضع مصطلحين نستطيع بهما التمييز بين ما سمّاه الدكتور جونسون الفكرتين اللتين تعطينا إياهما الاستعارة بأبسط أشكالها. دعونا نسمّهما المحمول والحامل Tenor and Vehicle. من أغرب الأشياء حقا في هذا الصدد أننا لا نملك مصطلحات مميزة لهذين النصفين المكوّنين للاستعارة، على الرغم من ملاءمة أو ضرورة هذه المصطلحات لأي تحليل يُراد إجراؤه دون إرباك. ذلك أنّ المسألة كلّها تتركز في مقارنة العلاقات المختلفة. للنصفين المكوّنين لاستعارة بعضها مع بعض وفي حالات مختلفة، وسنقع في فوضى منذ البداية ان لم نعرف عن أيٍّ من هذين الطرفين نتكلّم(5). وفي الوقت الحاضر لا نملك إلا بعض العبارات الوصفية غير الدقيقة نفصل بها بين هذين الطرفين من مثل (الفكرة الأصلية) و(الفكرة المستعارة) أو (ما يُقال أو يُفكَّر فيه فعلاً) و(ما يُقارن به أو معه)، أو (الفكرة الضمنية) و(الطبيعة المتخيلة) أو (الموضوع الأساسي) و(ما يشابهه)، أو ما هو أكثر إرباكاً (المعنى) و(الاستعارة) أو (الفكرة) و(صورتها).

يمكن ملاحظة قدرة هذه المصطلحات على الإرباك بسهولة. كما أن التجربة في تحليل نماذج من الاستعارة أكّدت أسوأ التوقعات. إننانحتاج بالطبع إلى كلمة (استعارة) للدلالة على الوحدة المزدوجة كاملة. غير أنّ استعمالها لطرف واحد من هذين الطرفين المكوّنين للاستعارة بشكل منفصل عن الآخر مضر كتلك الخديعة التي

بوساطتها نستعمل كلمة (المعنى) مرة لما تقوم به الوحدة المزدوجة كلها، ومرة للدلالة على طرف واحد منها، هو المحمول كما أسميه، وهو الفكرة الضمنية أو الموضوع الأساسي الذي يعينه الحامل أو المجاز.

ليس من المستغرب أن يشعرنا التحليل الدقيق للاستعارات، إذا تمّ بالاستعانة بمثل هذه المصطلحات، وكأننا نستخلص الجذر التكعيبي ذهنياً، ومن باب المقارنة الدقيقة، ما الذي يشعر به المبتدئ في الحساب حينما نستعمل كلمة (12) اثناعشر للدلالة مرة على الواحد (1)، ومرة للدلالة على الاثنين (2) وثالثة للدلالة على الرقم واحد وعشرين (21) ؟ ولنا أن نتذكر ـــ -دون الاستعانة بملاحظاتنا- أياً من هذه الاستعمالات نستخدم في أماكن مختلفة من حساباتنا. وتسلك كلّ هذه الكلمات (معنى) (تعبير) (استعارة) (مقارنة) (موضوع) (مجاز) (صورة) السلوك نفسه. وعندما ندرك هذا، فلسنا بحاجة إلى أن ننظر أبعد لكي نفسّر في الأقل بعضاً من هذا الوضع المتخلف في البداية.

أما لِمَ لَمْ يعالج البلاغيون هذا النقص في اللغة لأغراضهم، فيمكن أنَ يكون موضوعاً جديراً بالتأمل. لا أعرف جواباً مقنعاً لهذا السؤال. وقد تساءل واحد من أفضل من عرفت من المدّرسين، وهو ج. ي.مود : «لِمَ يجب أن نستعمل التعبير نفسه لإيصال معان مختلفة؟» سؤال أكبر من أن يُجاب عليه، ويبدو لي غريباً أن اللغة تنموَ كما لو كانت مصمّمة بشكل متعمد لتضليل الفلاسفة. ولا أدري لماذا أن كلمتي (مجاز) و(صورة) مضللتان بشكل خاص، فهما تستعملان في بعض الأحيان للدلالة على الطرفين، ومرة للدلالة على طرف واحد وهوالحامل مقابلا للثاني. ولكنهما، علاوة على ذلك، تسببان الإرباك مع المعنى الذي تكون فيه الصورة مجرّد نسخة أو إحياء لإدراك حسي من نوع ما. وهذا ما دفع البلاغيين للتفكير بأنّ المجازَ أو الصورة أو

المقارنة الخيالية لها علاقة ما بحضور الصور بالمعنى الآخر في (عين) العقل أو في (أذن) العقل.

وبالطبع، ليس ذلك ضرورياً. إذ ليست هناك حاجة لأن ترد صورة من هذا النوع بأيّ حال من الأحوال. وأمامنا مثل واحد لمثل هذا الأثر السيء الذي يتركه الانحراف عن الموضوع الأساسي الذي ذكرته في محاضرتي الأولى، وهو سلوك لورد كامس الغريب مع الصورة العقلية التي يَفترضُ أننا نشكّلُها من ريشة الطاووس لشكسبير. إن العديد من المدارس البلاغية والنقدية قد ضلّت الطريق بعد هذا. مثلاً، لقد أفسدتْ مناقشة «لسنغ» للعلاقات بين الفنون إفساداً كبيراً نتيجة لذلك. ولا يمكننا أن ندرك إدراكا حاسما ان طريقة عمل المجاز لا علاقة لها بالضرورة في الكيفية التي بوساطتها تساعد الصور بصفتها نسخاً أو نماذج للإدراك الحسّي، على إسناد كلمات القارئ أوالكاتب أو دعمها. وفي حالات خاصة، وبالنسبة إلى قرّاء معينين قد يحدث ذلك. وفي مثل هذه الحالة يكون من المناسب كتابة فصل طويل في علم النفس الفردي. ولكن الكلمات تستطيع أن تعمل من دونها، ولا حاجة لافتراض ضرورتها في نظريتنا العامة.

نستطيع أن نشرح صلاحية هذه المصطلحات الفنية، وهي الحامل والمحمول، والأثر الضار لفرضية الصور باقتباس آخر من «لورد كامس» (الفصل العشرون، الفقرة السادسة من كتابه "عناصرالنقد")، وسنرى مدى الحاجة لمثل هذه الأساليب الفنية الصارمة، عندما نلحظ صعوبة إدراك ما يقوله. إن وجهة نظره -فيما أعتقد- مغلوطة بشكل واضح. ولكن قبل الاقتناع بذلك، يجب أن نتأكد ماهي على وجه اليقين. وما أريد أن ألفت نظركم إليه هو لغته الفجة المحيرة التي لجأ بوساطتها إلى التعبير عن فكرته. إنه يبدو متهيئاً لوضع قاعدة يجب

أن يلتزم بها الكتاب عندما يصوغون استعارة. يقول :«إنّ المقارنة... الموجودة في الاستعارة تختفي عن طريق تصوّر ان الموضوع الأساسي هو الشيء الذي يشبه نفسه. إنها فرصة مناسبة لوصفه (أي الموضوع الأساسي) بلغة مأخوذة بصرامة أو حرفية بالإشارة إلى طبيعته المتخيلة».

لو أردنا أن نستعمل مصطلحاتي المقترحة، لقلنا إننا نستطيع وصف المحمول عن طريق وصف الحامل. ثمّ يمضي إلى القول :«وهذا يقتضي قاعدة أخرى، هي أنه عند صياغة الاستعارة على الكاتب أن يستفيد من كلمات يمكن انطباقها حرفيا على الطبيعة المتخيلة لموضوعه». أي ليس عليه أن يستعمل استعارة أخرى لوصف الحامل. ويقول :«يجب أن نتحاشى بعناية فائقة، الكلمات المجازية، لأنّ مثل هذه المجازات المعقدة تكون سبباً في إبهام الموضوع الأساسي بدلاً من أن تكون سبباً في إيضاحه، ويحسن بالقارئ، بدلاً من رفضه جملة وتفصيلاً، أن يسعى بصبر لاستخلاص المعنى البسيط بصرف النظر عن المجازات». فلنتأملْ ماتمّ عمله هنا بعناية، لأن ذلك يصوّر، كما أعتقد، كل الأشياء التي جعلت من الدراسات التقليدية للاستعارة غيرنافعة. ولاحظوا أولاً كيف يرينا ذلك افتراضات القرن الثامن عشر التي تقول إن المجازات مجرّد زخارفَ، أوجمال مضاف، وأنّ المعنى الصرف، أي المحمول، هو ما يهمّ في المقام الأول، وأنه يمكن للقارئ الصبور إدراكه بصرف النظر عن التعابير المجازية. إنّ أية نظرية حديثة سترفض ذلك استناداً إلى ما يأتي :

أولاً : في أكثر الاستعمالات المهمّة للاستعارة ينتج عن حضور المحمول والحامل مجتمعين معنى (يجب أن نميزه بوضوح عن المحمول) لايمكن الحصول عليه دون التفاعل المشترك بينهما.

ثانياً: إنّ الحامل ليس مجرّد زخرف للمحمول، وما كان له أن يتغير بواسطته، بل إنّ تعاون كلٍّ من المحمول والحامل يعطي معنى ذا قوى متعددة، ولا يمكن أن ينسب إلى أيٍّ منهما منفصلين، وأية نظرية حديثة ستمضي إلى القول بأنّ الأهمية النسبية، في الاستعارات المختلفة، لمساهمة كلٍّ من المحمول والحامل في هذا المعنى الناتج من تفاعلهما تختلف اختلافاً كبيراً. فمن ناحية قد يكون الحامل مجرد تزويق أو تلوين للمحمول، ومن ناحية أخرى قد يكون المحمول مجرد ذريعة لإبراز الحامل، وبالتالي لن يكون الموضوع الأساسي. وهكذا تختلف كثيراً درجة تصورنا للمحمول (بوصفه ذلك الشيء الذي يشبهه عينه).

هذه اختلافات سأعود إليها، لكننا سندرس لورد كامس هنا بتفصيل أكثر. ما رأيكم في هذا المبدأ الذي يفرض علينا أن نتجنب إيراد استعارة بعد أخرى؟ ما الأثر الذي سيحصل لو تمسكنا بهذا المبدأ جدياً؟ الأثر هو أن تعمَّ الفوضى فيما نكتب ونقول، لو قبلناه وطبقناه. فهو يتجاهل كلّ استعارات كلامنا المألوفة الباقية، تحت شعار انها ميتة. وسنجعل، فيما أعتقد، من شكسبير أكثر الكتاب الذين أمسكوا بالقلم أغلاطاً. وسنعطي الاذن الصمّاء لأبرز ممارستنا الجارية في دقائق كلامنا. انظروا مثلا إلى عبارته: «ستكون مثل هذه المجازات المعقدة سببا في إبهام الموضوع الأساسي بدلاً من أن تلقي ضوءاً قوياً عليه». ماذا عن كلمة ضوء (قوي)؟ إنّ كلمة (ضوء) حامل، وهو موصوف، دون الإحساس بصعوبة ما، باستعارة ثانوية، بكلمة مجازية. قد تقولون كلاًّ، كلمة (قوي) لم تعد كلمة مجازية عند استعمالها مع كلمة (ضوء)، بل هي كلمة وصفية حقيقية مع الضوء، كما مع (إنسان) أو (حصان)، لأنها لا تجمل فكرتين في فكرةٍ واحدة، ولأنّها أصبحت

مبتذلة أو ميتة تماماً، فإنّ من السهل إعادة الحياة إليها ثانية. ولو كان كامس على حق لكانت إعادة الحياة إلى مثل هذه الاستعارات تعني المجازفة في إبهام المحمول. غير أن شيئاً من هذا القبيل لم يحدث.

إن التمييز القديم بين الاستعارة الحية والميتة (وهذه بدورها استعارة مزدوجة) كان سبباً في أن لا تؤدي الحصافة والذكاء وحسن التمييز دورها في الموضوع كلّه. إنّ أسبابا جدية حقاً تدعو إلى إعادة نظر جذرية في الأمر كلّه. ونحن في الواقع أكثر مهارة وقدرةً إلى حد كبير في معالجة الاستعارات المعقّدة مما يسمح لنا به كامس. إنه يعطي مثلاً مخالفاً لقاعدته، وهو جدير بالفحص، لا لشيء، إلاّ لمجرد البرهنة على أنّ النظرية تستطيع بسهولة أن تشلّ القابلية العادية في مثل هذه الأمور. وإليكم المثل في هذين البيتين :

لهب عنود ولا يُقهر
يسري في عروقه ويشرب ينابيع الحياة.

يقول : «دعنا نحلل هذا التعبير. أعترف أنه يمكن أن نتصور الحمّى على أنها لهب، على الرغم من أن هناك أكثر من خطوة ضرورية للوصول إلى هذه المشابهة». أما أنا فأفترض العكس. إذ من الصعب أن نجد تحوّلا أبسط من ذلك، طالما أنّ الحمى واللهب كليهما مثالان على ارتفاع درجة الحرارة. إلا أنه يمضي في تفصيل هذه الخطوات قائلا : «إنّ الحمى تشبه النار لجعلها الجسم ساخناً. وليس من باب التوسع في التفسير أن نتصوّر الحمّى ناراً. ومجازاً، يمكن وضع اللهب بدلاً من النار، لأنّ الاثنين مترابطان. وإذن فمن الممكن تسمية الحمّى باللهب. والآن، وبعد أن قبلنا أن نحوّل الحمى إلى لهب، علينا أن نفسر تأثيرها بلغة تناسب كلمة لهب حقيقةً لا مجازاً. لكن هذا المبدأ لا ينطبق هنا

لأنّ اللهب يشرب على سبيل المجاز، لا على سبيل الحقيقة». حسناً! لكنْ من يجد صعوبة في فهم هذين البيتين برغم كلّ ما قيل حولهما؟ إنّ الحامل الثانوي لم يمنع تفاعل كلٍّ من المحمول والحامل. لقد تناولتُ هذا النمـوذج من الحذلقة العقيم لكي أعوّدكم خاصةً على استعمال هذه المصطلحات الفنية، وإلى حدٍّ ما من أجل أن أُسند حججي في أن خير ما في الدراسات التقليدية عن الاستعارة ليس سوى مجموعة من الإشارات التحذيرية للتلاميذ المتحمسين. وهي إشارات ترتدي قناع نظرية أساسية في اللغة. ولم يكن لورد كامس ضيق التفكير بشكل كبير في معالجته، كما لم يكن خالياً من دقة الإحساس على نحو غير طبيعي. وأنت تجد الشيء نفسه عند «جونسون» في مناقشاته «كاولي» و«دن» مثلاً في «مونبود» وهاريس ووذرز وكامبل، وعند كلٍّ بلاغيي القرن الثامن عشر البارزين.

لقد وُضعت قضايا اللغة الأساسية موضعها الصحيح عند مجيء كوليرج. ولكنّ فكر كوليرج لم ينل ما يستحقه من عناية. وبعده، وعلى الرغم من الاحتمالات والتوقعات التي هيأها، كان هناك تراخ في الاهتمام بمثل هذه القضايا.

لقد كان القرن الثامن عشر مخطئاً في طريقة وضعه لتلك المشاكل وفي الأسلوب الذي اتبعه لمعالجتها. ولكنه كان في الأقل يعرف أنّ هذه مسائل أساسية ومهمّة، وأن هناك مجالاً واسعاً للعمل في هذا الشأن. وعليه فإنّ كتاب «لورد كامس» «عناصر النقد» قيّم جداً، على الرغم مما يبدو من سخريتي به في بعض المواضع. وعلى الرغم من أنه مملوء بأشياء مكررة تجعل من قراءة الكتاب أمراً ممتعاً، فهو كتاب توجيهي يقدّم نموذجاً للمفاهيم المغلوطة التي لابدَّ من تفاديها، وللمشاكل التي يجب البدء في معالجتها وإعادة تنظيمها والمضي في

ذلك قدماً. وإذ نقلب صفحات الكتاب، سنجد بين الحين والآخر قضايا تثار، وهي مما لا يمكن لأية دراسة جدية للغة تجاهلها، وإن لم تكن معالجته إياها مرضية.

يساعدني شيء كهذا على أن أقدّم تحذيرين، هما مما تحتاجه دائماً أية محاولة طموحة لتحليل الاستعارة.

يقتبس لورد كامس من مسرحية «عطيل» البيت التالي :

وأغرقتني في الفقر حتى شفتيَّ

ويعلّق : «أنّ الشبه من الضعف بحيث لا يمكن أن يكون مقبولاً، إذ يجب أن نتصور الفقر هنا شيئاً سائلاً». وهذا أمر غير صحيح. ولكن لننظر في خطبة عطيل كلّها. وسنجد أن العثور على تفسير أو تسويغ لكلمة (أغرق) هنا ليس بالأمر السهل. وكما تعرفون، ترد هذه الكلمة حين يتهم عطيل ديزدمونة بالخيانة :

لو أنّ مشيئة السماء كانت
أن تبتليني بالنوائب، لو أنها أمطرت
ضروب القروح والمخازي على رأسي العاري،
وأغرقتني في الفقر حتى شفتيَّ،
وأسلمتني للعبودية أنا وأقصى ما أؤمل
لوجدت في مكان ما من نفسي
قطرةً من جَلَد. أمّا أن تجعلني، وا ألماه
هدفاً ثابتاً لهزء الزمن
يشير إليَّ ببنانٍ بطيءٍ لا يتحرك!...

ولكن كنت أتحمّل ذلك كلّه أيضاً، حسناً، حسناً جداً.
أمّا أن يُقذفَ بي عن ذاك الذي فيه خزنتُ قلبي
ذاك الذي به عليَّ أن أحيا، أو أُعدم الحياة،
ذلك الينبوع الذي فيه يدفق سيلي،
ويغيض بدونه
أمّا أن يُجعل منه بالوعةً تتناكح فيها
ضفادع السم وتتوالد[6].

ماذا نقول عن كلمة (أغرق)؟ وكيف يجيب لورد كامس على هذا؟ إنه معتدل حقا بقوله: «إنّ الشبه من الضعف بحيث لا يمكن أن يكون مقبولاً». والواقع، ليست المسألة غياب التشابه، بل هي مسألة اختلاف كبير وتضاد شديد. لأنّ الفقر وهو المحمول هنا، حالة توحي بالحرمان والجفاف، أمّا الحامل، وهو البحر أو الراقود، الذي سينحدر إليه عطيل فيوحي بالفيض والوفرة. في الفقر يذهب كلّ شيء، ولا يأتي شيء. وعندما تكون الصورة على النحو (يغرق حتى الشفتين) فإنّ ما ينبغي أن نحتاط منه هو فكرة الفيض والغزارة[7]. وسنلاحظ أنّ الخطبة كلّها تعود باستمرار إلى صور السيولة. مثلاً: (وأمطرت عليَّ)، (قطرة من جلد)، (الينبوع الذي منه يدفق سيلي...ويغيض). غير أنّ أياً من هذه الصور لا يستطيع أن ينقذ كلمة (أغرق)، بل إن إحداها، وهي (قطرة من جلد)، تجعل الأثر المضطرب والمرتبك لكلمة (أغرق) يبدو أسوأ. ولا أجد نفسي قادراً على العثور على أية وسيلة دفاع لهذه الكلمة، عدا هذه التي تبدو كافية، كما هو الحال اعتيادياً في الضروريات الدرامية، وهي أنّ عطيل نفسه مضطرب، اضطراباً فظيعاً، وأن الكلام جزء من عاصفة الرعب والغضب التي هاجم بها ديزدمونة.

والعقل المشوّش المضطرب وقتياً ينطق على هذا النحو، وتسيطر عليه صور معينة بصرف النظر عن لياقتها. ويمكن القول إن عطيل غارق في هذه العاصفة. وهو يعرف ذلك. ومن هذا المثل، أستطيع أن أستخلص أمرين : الأول، أنّ عجزنا عن معرفة كيف تعمل الكلمة ليس دليلاً كافياً على أن الكلمة لا تعمل. والثاني، وهو نقيض الأول، إنّ معرفة كيف يجب أن تعمل الكلمة لا يكون دليلاً على أنها تعمل فعلاً. وتقودنا أية دراسة مفصلة للاستعارة إلى خطر الادّعاء والاقتناع الذاتي، بحيث يصبح من الضروري تأكيد الأمرين المذكورين. على أن فحصاً نقدياً للاستعارة، وفي أذهاننا ذلك، هو ما يحتاجه النقد الأدبي الآن في الأساس.

لو عدنا إلى كامس ثانية لوجدنا أنّ اعتراضه بأنّ الشبه من الضعف بحيث لا يمكن أن يكون مقبولاً (لاحظ الافتراض المضحك أنّ على الكاتب أن يكون مقبولاً) يفترض ارتباط المحمول بالحامل من خلال علاقة المشابهة، وأنّ تفاعلهما إنما يأتي عن طريق مشابهة أحدهما للآخر. ويفخر كامس في موضع آخر ـــ على نحو مسوّغ ـــ بإشارته إلى أنماط التعابير المجازية التي لا تعتمد على المشابهة، وإنما على علاقات أخرى بين المحمول والحامل. وهو يقول إنّ الكتاب السابقين لم يلتفتوا إليها. وإنها يجب أن تتميز عن التعابير المجازية الأخرى التي تستند إلى مبدأ مختلف. ومن أمثلة هذه التعابير المجازية : (حافة دوارة)، (خمرة مرحة)، (جرح جسور). في هذه الأمثلة أوصاف لا يمكن أن تكون دالة على أية صفات أو خصائص للموصوفات التي ارتبطت بها. فالحافة ـــ مثلاً ـــ لا يمكن أن توصف بأنها مصابة بدوار حقيقة أو مجازاً، إذ ليس في هذه الصفة ما يدلّ على خصائص الحافة أو صفاتها. وعندما نتأمل التعبير جيداً سنكتشف أنّ وصف الحافة بأنها

دوّارة جاء من الأثر الذي نراه على من يقفون عليها. يقول كامس كيف نستطيع أن نفسر هذا التعبير الذي نراه كامناً في الفكر، وعلى وفق أيّ مبدأ نشير إليه ؟ هل للشعراء الحق أن يغيروا طبيعة الأشياء أو يمنحوها صفات لا تعود لها كما يشاؤون ؟ إنّ كثيراً من المعاصرين سيقولون : «نعم لهم الحق في أن يفعلوا ذلك». ولكن كامس لا يلجأ إلى هذا للخروج من المأزق، بل يلجأ إلى مبدأ الترابط المتجاور، وهو يقول إن هناك فرصاً لكي نقرّر أنّ الذهن يمرّ بسهولة ويسير عبر سلسلة من الموضوعات المترابطة، وحين تكون هذه الموضوعات متلازمة تلازماً وثيقاً، فإنها تميل إلى أن تحمل معها الصفات الجيّدة والرديئة من واحد إلى الآخر، لا سيّما حين تبدو مشحونة إلى درجة كبيرة بهذه الصفات المميزة. ثمّ يسرد ثماني تشكيلات منوعة لمثل هذه الخصائص المتجاورة أو المتقاربة، دون أن يدرك بوضوح ـــ كما أعتقد ـــ الامتداد الواسع لنظرية الاحتمالات للتفاعلات الاستعارية التي صنعها بهذا المبدأ الجديد وبمجرد أن نفحص بإمعان تفاعلات لاتعمل من خلال المشابهات بين المحمول والحامل، وإنما تعتمد على علاقات أخرى فيما بينها، بما فيها الاختلافات، حتى يتعرى بعض من فرضياتنا السائدة الشائعة والبسيطة جداً عن الاستعارات بوصفها مقارنات.

ولكن دعونا نلق نظرةً أخرى على (الحافة الدوارة) ونتساءل أوّلاً أكان كامس على حق حين قال إن (الحافة) لا يمكن أن توصف بأنها دوارة، بمعنى أنها إلى حدّ ما تعبّر أو تدلّ على خصائصها وصفاتها. أهو على حق حينما يحوّل كلمة (دوارة) إلى (صانعة للدوار)، أي أن توصف الحافة بأنها دوارة لأنّها تكون سبباً في إحداث أثر الدوار في الذين يقفون عليها ؟ ألا يمكن أن يكون الأمر على النحو الآتي : في

لحظة الدوار نفسها، تبدو الحافة وكأنّها دوارة فعلاً. وعندما يترنح الإنسان من الدوار فإنّ العالم يدور أيضا، والحافة لا تكون سبباً في إحداث الدوار فقط، ولكنها مصابة فعلاً بدوار، وتبدو هي نفسها مترنحة بسبب ذلك، فتدور بسرعة مذهلة. وتنقل العين حركتها، بسبب تذبذب مقلتها اللاإرادي، إلى العالم الخارجي من خلال تلك الحافة نفسها. وهكذا فإنّ الحافة التي يتحدث عنها الشاعر تكتسب حين إدراكها في الواقع صفة الدوار. وإذا كان الأمر كذلك، فلنا أن نشكّ لحظةً إن كانت هناك استعارة أساساً، حتى نصل إلى الدوران، الذي يغدي العالم كلّما تعرضنا لدوار، بطريقةٍ هي نفسها استعارية أساساً وجذرياً. عيوننا تنتفض، والعالم هو الذي يدور. وهكذا الشأن إلى حد كبير وربما في التحليل الأخير، مع كلّ إدراكاتنا. فالعالم الذي نعيش فيه عالم إسقاطي تضفي عليه الصور التي نصوره بها سمات حياتنا الخاصة. وهكذا نستردّ ما نعطيه.

إنّ عملية الاستعارة في اللغة والتبادلات بين معاني الكلمات التي ندرسها في الاستعارات اللفظية الواضحة المحددة قد فُرضتْ من فوق على عالم مدرك هو نفسه نتيجة استعارة سابقة أو غير متعمدة. ولن نتعامل معها تعاملاً صحيحاً إذا نسينا هذا الأمر. ويدعونا هذا، إذا أردنا أن نأخذ نظرية الاستعارة أبعد مما أخذها رجال القرن الثامن عشر، إلى أن تتوفر أمامنا نظرية عامة في المعنى.

———— —



المحاضرة السادسة

ملكة الاستعارة

حينما قضيتُ وقتاً طويلاً في مناقشة نظريات كامس في الاستعارة، فلأنه كان أفضل من عرفت ممن يمكن أن يمثل قصور المنهج التقليدي وعجزه عن دراسة الموضوع، وهو يكشف في الوقت نفسه لِمَ كان هذا العجز والقصور غير ضروريين.

وكان السبب في إهمال بحث أنماط الاستعارة في أواخرالقرن التاسع عشر، في نظري، شعوراً عاماً في كون مناهج البحث هذه غير مجدية، وأنه لم يحن الوقت بعد للشروع في بداية جديدة. ولستُ أدري إن كان الوقت مناسباً الآن، على الرغم من كلّ ما فعله «كوليرج» و«بنتام» لإنضاجه.

ومن المحتمل أن تقود أية محاولة أخرى إلى التكلف والتعسف. وإذا صحَّ هذا فإن محاولة كشفها واستقصائها ستكون خطوة على الطريق. وبشأن الموضوع الذي نحن بصدده، فإنّ الأفضل أن نرتكب خطأً يمكن كشفه على أن لا نفعلَ شيئاً. ومن الأفضل كذلك أن تكون لنا أبحاث في كيفية عمل الاستعارة (أو عمل الفكر) على أن لا يكون لنا شيء ألبتة، بشرط أن لا نفترض أنّ دراساتنا هذه تفسّر لنا حقيقة ما يجري، أعني بذلك أن لا نخلط بين نظرياتنا ومهاراتنا، أو بين أدواتنا الوصفية وما تصفه. وكان هذا بالضبط الخطأ المتكرّر الذي تمثله خير

تمثيل مذاهب القرن الثامن عشر. وهو خطأ يمكن أن تقع فيه كلّ المذاهب، ما لم نستطع الاحتياط منه. وهذا ما يسمّيه «وليم جيمس»: «مغالطة العالم النفساني»، يريد بذلك الخلط بين المذهب الذي قد يكون جيداً بحدّ ذاته، وبين الإجراءات التي ينهض بها. وكما يقول «برجز» في قصيدته «إنجيل الجمال»:

كأنّ تشابكات المنطق كانت الشرط الأول للوجود
ولجوهر الأشياء. وقد ظنّ الإنسان،
في رحلة التعب، من ضمير العدم إلى الجهل الواعي
أن عكازته المترنحة عضو الحياة الأساس.

إن مهارتنا في صياغة الاستعارة والفكر شيء عظيم وغير قابل للتفسير، أما وعينا المتردي لتلك المهارة فشيء آخر، وهو ناقص ومشوه ومغالط ومبسّط جداً. إن مهمته ليست في أن يكون بديلا للممارسة، أو أن يقول لنا كيف نستطيع أن نعمل ما لا نستطيع عمله، ولكن أن يحمي مهارتنا من تطفل أفكار فجّة على نحو لا طائل منه. وفوق ذلك أن يساعد على نقل تلك المهارة، ملكة الاستعارة،من عقل لآخر.

والتطور هنا، المتمثّل في ترجمة مهارتنا إلى ملاحظات ونظرية، متأت في الأساس من الاستفادة من أخطائنا.

وقد استخدمت معنى مصطلح (الاستعارة) في محاضرتي السابقة بشيء من التعميم والتوسع إلى أقصى حد كما يبدو لكم. ذلك أني قد استخدمته ليعني الحالات «التي تُعطى فيها الكلمة - بعبارة جونسون ــ فكرتين بدلاً من فكرة واحدة»، وحيث تمتزج الاستعمالات المختلفة للكلمة في استخدام واحد، فنتحدث عن شيء وكأنه شيء آخر. وقد مضيت إلى أبعد من هذا فجعلتها تشمل، بصفة

استعارية، كل تلك العمليات التي ندرك فيها شيئاً ما أو نفكر فيه أو نشعر نحوه بلغة أخرى أو مصطلح آخر. كما هو الحال عندما ننظر إلى بناية مثلاً، فيخيَّل إلينا أنها تمتلك «وجهاً»، وأنها تنظر إلينا بتعبير غريب. وأود أن أكرِّر أن مثل هذا أمر عادي. وأن دراسة تطور مدركاتنا (عالم الأطفال الحي أو غيره) يرينا أن الأمر لابد أن يكون على هذا النحو.

دعني أبدأ بأبسط أنواع الاستعارة وأكثرها شيوعاً مثل قولنا (أرجل المائدة). فهذه استعارة ميتة، ولكنها تكتسب الحياة بسرعة. ولكن ما الذي يجعل مثل هذا التعبير مختلفا عن قولنا مثلا (أرجل الحصان) ؟ يتمثل الاختلاف في أن لأرجل المائدة بعض خصائص أرجل الحصان. والمائدة لا تسير بأرجلها وإنما تُمسَك بها، وتسندها. وفي مثل هذه الحالات تسمى الخصائص المشتركة « أرضية» أو «قاعدة» الاستعارة[8].

ولا يصعب علينا أن نكتشف وجه الشبه هذا في المثل السابق. على الرغم من أن هذا ليس سهلاً دائماً. ومن الاستعارات ما يؤدي وظيفته على نحو أحسن ورائع دون أن نعرف على وجه التحديد كيف تعمل وما وجه الشبه. تأمل على سبيل المثال بعض استعارات الهجاء والمدح. فلو دعونا أحداً بلفظة (خنزير) أو(بطة)، فمن العبث أن نبحث وجه الشبه الحقيقي بين الخنزير من جهة والشخص الذي يطلق عليه هذا الاسم، وكذلك الأمر في الاستعارة الثانية. ونحن لا نسمي فتاةً (بطة) لأنها تملك رجلاً كالمجداف أو منقاراً، أو أنها صالحة للأكل. إن أساس التشابه هنا أعقد من هذا بكثير وأشد غموضا. يلمح قاموس أكسفورد إلى هذه الاستعارة بالقول إن لفظة (بطة) تستعمل للإشارة إلى شئ فاتن وجميل. إن تفسيراً مبسطاً لوجه الشبه في هذه الاستعارة

يمكن أن يكون شيئا من نحو.. إن شعوراً يتميّز بالرقة واللطف ينتابنا نحو البطة، وإن مثل هذا الشعور يمكن أن ينتقل إلى شخص آخر.

وعلى هذا يمكن أن تقسم الاستعارات عموماً إلى نوع يقوم على وجود علاقة شبه مباشرة بين الطرفين، المحمول والحامل، ونوع يقوم على وجود موقف مشترك نتخذه (لأسباب عرضية خارجية) نحو الطرفين المكونين للاستعارة. وهذا التقسيم بالطبع ليس نهائياً أو غير قابل للاختزال.

إن تماثل الطرفين يشير، بمعنى ما، إلى أنهما يشتركان في صفة واحدة. مع أننا ندرك، في الوقت نفسه، أنهما مختلفان تمام الاختلاف. إن حبي للنبع والمنطلق مثلاً لا يعني أنهما يمتلكان صفة مشتركة واضحة. إلا أن هذا التقسيم، على الرغم من أنه لا يمضي بنا بعيداً، ينفعنا، في مستوى من مستويات دراستنا، في تجنّب السقوط في أخبث الشراك. أعني بهذا الافتراض الذي يقول إن عدم فهمنا للطريقة التي تعمل بها الاستعارة لا يعني بالضرورة أنها لا تعمل.

ولكن دعونا نرجع ثانية إلى استعارة (الأرجل). وسنكشف أن الحدود بين ما هو حرفي وما هو استعاري هنا ليست ثابتة ولا مطردة. فما الذي يمكن أن نطبق عليه كلمة (أرجل) حرفياً ؟ للحصان أرجل حقيقية وكذلك العنكبوت. ولكن ماذا عن الشمبانزي ؟ آلَهُ رجلان أم أربعة ؟ وماذا في نجمة البحر ؟ آلَهَا أذرع أم أرجل ؟ أم أنها لا تملك أيا منهما ؟ وإذا كان لرجلٍ ما أرجل خشبية، أتكون الأرجل هنا حقيقية أم مجازية ؟ والجواب عن السؤال الأخير أنها حقيقية ومجازية في وقت واحد. فهي حقيقية في بعض الجوانب ومجازية في جوانب أخرى. وإذن فقد تكون اللفظة مجازية (استعارية) وحقيقية في وقت واحد.

وكما أن بمقدور اللفظة أن تحمل استعارات عديدة في وقت واحد أيضاً، يمكنها أيضاً أن تجمع في معنى واحد مجموعة دلالات مختلفة. وهذه مسألة ذات أهمية، طالما أن كثيراً من سوء الفهم سببه الاعتقاد أنه إذا كان للفظة أن تعمل باتجاه واحد، فإنها لا يمكن في الوقت نفسه أن تعمل باتجاه آخر، ويكون لها معنى ثانٍ.

وعليه، فإنه ليس من السهل دائماً أن نقرر إن كانت اللفظة قد استخدمت بدلالة حرفية أو مجازية استعارية، ولا يمكن أن يكون هذا بالطبع قاعدة عامة. وقد نستطيع أن نحسم المسألة مؤقتاً إن كان اللفظة في نص أو مثل قد دلت على فكرتين في فكره واحدة، أو أنها، إذا استخدمنا المصطلحين اللذين اقترحتهما سابقا، تعرض لنا المحمول والحامل المتضامنين في معنى محدد. فإن لم نستطع أن نميِّز المحمو ل من الحامل فلنا أن نأخذ الكلمة مؤقتاً على أنها حقيقية، فإذا استطعنا أن نميِّز بين استخدامين متضامنين فاللفظة مجازية. وحين يقول «هاملت» على سبيل المثال :

ما الذي يترتب على من هم مثلي أن يفعلوه إذ يدبون بين الأرض والسماء (9) .

أو حين يقول : «سويفيت» على لسان الملك مخاطبا جلفر: «إن غالبية مواطنيك يبدون لي من شر أجناس الحشرات الممقوتة الصغيرة التي يسمح لها بالدبيب على الأرض»... هل نعد لفظة (دبيب) أو (دبٌّ) مجازيتين أم حقيقيتين ؟ جوابي أنهما مجازيتان. يستطيع هاملت أو أي رجل أن يدب حقيقة كما يفعل، بلا شك، الأطفال أو صيادو الحيوانات الكبيرة في بعض الأحيان. غير أن في الفقرتين إشارة لا يمكن أن تخطئ إلى أشياء أخرى تدبّ، إشارة إلى حركات

الحشرات الضارة والهوام. وهذه الإشارة تعني الحامل، مثلما أن هاملت أو أي إنسان آخر هو المحمول. وفي ضوء هذا تبدو كل الجمل والعبارات في أي حوار طلق أو خطاب اعتيادي استعارية. وتبدو اللفظة الحقيقية خارج نطاق الموضوعات العلمية نادرة، مع أننا نظن أو يبدو لنا، أن استخداماتها أكثر مما هي في الواقع. ومرد هذا الاعتقاد مذهب (الاستعمال) الذي يعزو إلى الكلمات معاني مفردة ثابتة. وهذا هو السبب الذي جعلني أقضي وقتاً طويلاً في هذه المحاضرات للرد على مثل هذا المذهب.

دعونا الآن نتأمل بعض العلاقات المتنوّعة القائمة بين المحمول والحامل. ومن المناسب أن نبدأ بالإشارة إلى فكرة كثيرة الدوران. وهي أن الاستعارة تتضمن مقارنة أو موازنة. ولكن ما الموازنة والمقارنة ؟ قد تعني هذه اللفظة عدة أشياء. فقد تعني أن نجمع بين شيئين كي يعملا معاً. وقد تعني أيضاً دراسة هذين الشيئين لكي نرى كيف يماثل أحدهما الآخر، وكيف يختلفان. وقد تدلّ أيضا على محاولة لفت الانتباه إلى التشابه القائم بينهما، أو لفت نظر الآخرين إلى بعض ملامح أحدهما من خلال حضور الآخر. وبما أن الموازنة أو المقارنة تعني كل هذه الأشياء فنحن نحصل على دلالات مختلفة للاستعارة.

فإذا أردنا بالمقارنة مجرد التماثل فنحن أمام مفهوم للاستعارة يعود إلى القرن الثامن عشر. فالدكتور جونسون مثلاً يثني على أبيات دنهام في وصف نهر التيمس بالقول : «لقد استُحضِرَت المتشابهات الدقيقة على نحو يشي بحدة ذهن ونفاذ بصيرة». والأبيات هي :

أوه ! هل لي أن أتدفق مثلك، وأن أجعل مجراك
مثلي الأعلى، كما هو موضوع شعري

ومع أنك عميق فأنت صافٍ، ومع أنك رقيق فلست بكليل أو فاتر.

فأنت قوي بلا غضب، ومملوء بلا تدفق

هنا يمكن القول إن تدفق ذهن الشاعر هو المحمول والنهر هو الحامل.

ومما تجدر ملاحظته، بصفتها تمريناً في التحليل، أننا نجد في البيتين الأخيرين تناوباً متكرراً في المراكز المتعلقة بالمحمول والحامل، وفي اتجاه التحوُّل بينهما. فالعبارة (ومع أنك عميق فأنت صافٍ) وصف حقيقي للحامل الذي هو النهر. وهو بشكل ثانوي وصف مجازي للذهن. وفي قوله (ومع أنك رقيق فلست بكليل أو فاتر) نجد أن لفظة (رقيق) وصف حرفي للذهن، أي للمحمول، ومع ذلك فهو وصف استعاري للنهر. وقد جرى الأمر على نحو معكوس. إلا أن لفظة (كليل أو فاتر). كما أعتقد، تمضي بعكس الاتجاه. فهي وصف حرفي للحامل واستعاري للذهن. أما قوله (فأنت قوي بلا غضب) فهي في رأيي وصف للذهن أولاً، ثم النهر بلا شك، وأن (مملوء بلا تدفق) وصف للنهر ثم الذهن.

وفي ضوء ذلك كله، فإن ما يحسم الأمر ليس الجانب الاشتقاقي للكلمات. وإنما طريقة فهمنا لها. إن هذه التفاصيل ليست مهمة بنفسها. على الرغم من أن العناية بهذا يمكن أن تمهد لهذا النوع الخاص من الاهتمام الذي يحتل منهج الدراسة كلها. ومع ذلك، فقد لا يكون لهذا التعاقب أيّ أثر في القوة الغامضة التي لهذين البيتين، وفي الطريقة التي يمثل فيها هذان البيتان الأشياء التي يصفانها.

ومع أنك عميق فأنت صاف، ومع أنك رقيق فلست بكليل أو
فاتر فأنت قوي بلا غضب، ومملوء بلا تدفق

وقد يكون لذلك علاقة بما يلاحظه جونسون بحق إذ يقول «إن انسيابية هذين البيتين من الرقة والنعومة بحيث إن الثناء عليهما لا يمكن أن يكون مبالغا فيه». «إن التشابه [بين المحمول والحامل] قد جمعت على نحو ذكي وحاذق». وهذا نموذج لمفهوم القرن الثامن عشر لهذا النوع من المقارنة التي تقدمها الاستعارة، وتشير فيها إلى عناصر التشابه المجتمعة ببراعة وذكاء. إلاَّ أن هذا المفهوم لا يمكن أن يفسر لنا حقيقة كيف تعمل هذه الأبيات. وكلما مضينا في دراسة معاني الألفاظ (عميق، صاف، رقيق، قوي، مملوء) وإيحاءاتها بكونها أوصافاً للمجرى والذهن بعناية، سنجد أن التشابهات بين المحمول والحامل لا قيمة لها في تفسير النص. وأن النهر (الحامل) إنما جيء به لمجرّد أن يكون وسيلة لوصف الذهن بما لا يمكن أن يوصف النهر به. خذ مثلاً لفظة (عميق). إن ما توحي به هذه اللفظة مما هو مناسب للنهر شيء كهذا (ليس سهلاً عبوره) أو (خطر) أو (صالح للملاحة)، وربما (مناسب للسباحة). وبالنسبة للذهن فإن اللفظة توحي بالآتي (غامض) أو (مستمر، متدفق) أو (غزير المعرفة وقوي) أو (يصعب على التفسير) أو (تحكم تصرفه أسباب جادة ومهمة). إن ما تقوله الأبيات في وصف اذهن لا ينطبق على النهر. على أن النهر مع ذلك ليس حجة أو سبباً أو مجرد زخرفة أو زركشة. إذ إن الحامل مازال يتحكم في النمط أو الأسلوب الذي يتشكّل به المحمول. ويبدو هذا واضحاً لو استبدلنا مثلاً كوب الشاي بالنهر.

ومع أنك عميق فأنت صاف، ومع أنك رقيق فلست بكليل أو
فاتر فأنت قوي بلا غضب، ومملوء بلا تدفق. إن المقارنة بصفتها عنصراً

من العناصر المؤكدة للتشابه ليست النمط الكامل لهذه الاستعارة. مع أنها كذلك في كتابات القرن الثامن عشر، حيث الفكرة هي الطرف الأكثر أهمية في الاستعارة.

والمفهوم المقابل للمقارنة بصفتها جمعاً بين شيئين يهدف إلى معرفة ما يمكن حدوثه خلال عصر يجعل من الحالة المتطرفة نموذجاً وقاعدة. وهاهي بشكلها الموجز والمبالغ فيه. يقول أندريه بريتون زعيم السريالية الفرنسية معبراً عن هذا الموقف بوضوح «إن غاية ما يطمح إليه الشعر هو، أن يقارن بين شيئين متباعدين في خصائصهما وصفاتهما إلى أبعد حد. أو أن يجمع بينهما بأية طريقة كانت على نحو فجائي ومثير للدهشة». إذن فأقصى ما يطمح إليه الشعر أن يجمع بين أمرين بشكل صارخ ومفاجئ. إنه مبدأ جدير بالمناقشة ! وإذ يرى ماكس ايستمان في كتابه «العقل الأدبي» أن الاستعارة تتحقق بعملية تطابق وتماثل متعذّرة التحقيق، لا يرى بريتون ضرورة في أن نعرف ما الذي تضعه مع ماذا، شريطة أن يكونا متباعدين بما فيه الكفاية، ولايميز بين التأثيرات المختلفة لهذا الجمع. وهذا موقف مناقض لما يراه جونسون. فحيث يعترض جونسون، مثل كاولي، على المقارنة لكونها بعيدة المأتى، يبدو أن ما هو فضيلة هنا هو البعد نفسه. ويشارك ايستمان في اللامبالاة بالتأثيرات المترتبة على الجمع بين المتباينين والمتباعدين. فالشاعر بالنسبة له يسعى لإيصال تجربة لا يمكن الحصول عليها في أي مكان آخر. ولكي يحقّق هذا يصنف ايستمان،«يجب، على الشاعر، أن يثير رد فعل ما ويحول دون تحقيقه في الوقت نفسه، وأن يخلق توتراً في نظامنا العصبي كافياً ومحسوباً بدقة ليجعلنا ندرك تماماً أننا نعيش شيئاً ما، وليس مهماً أن نعرف ما هو»، (العقل الأدبي، ص 205). وإنها لعبارة جريئة حقاً هذه الأخيرة. إربط إنساناً وقرّب منه قضيباً حامياً.

ومن المؤكد انك ستثير عنده رد فعل، ثم قف دون تحقيقه.. كل ذلك من أجل أن تجعله يدرك أنه يعيش شيئا ما. تلازم هذه الجرأة الكثير من الكتابات النظرية والتطبيقية المعاصرة، وليس في العبادة السربالية لجنون العظمة المفتعل فقط. وسبب هذا كما أعتقد المفهوم الفج لأسلوب عمل الاستعارة. وهو مفهوم يمثل رد فعل متطرف من نوع الأشياء التي وجدناها عند اللورد كامس.

دعنا نفحص بدقة أكبر ما يحصل في العقل عندما نضع شيئين، على نحو مفاجئ ومثير للدهشة، ينتميان إلى نظامين مختلفين من التجارب. إن أهم ما يحدث، علاوة على الأصداء والارتجاعات المضطربة والإجهاد، هو محاولة العقل الربط بينهما. لأن العقل عضو رابط ولا يعمل إلاّ بهذا الأسلوب. وهو يستطيع أن يربط أي شيئين بطرق مختلفة لا يحصيها عد. ولكن اختيار أي من هذه الطرق يتم بالإشارة إلى كل أوسع أو هدف. ومع أننا قد لا نستطيع أن نكتشف الأهداف، إلاّ أن العقل لا يمكن أن يكون بلا هدف. ونحن في كل التفسيرات إنما نقوم بعملية ربط متواصلة. وتبدو حريتنا في هذه العملية في الشعر، غياب الخطوات الوسطى المشار إليها بوضوح، مصدر القوة فيه. ولقد عبّر عن ذلك بشكل حسن السيد امبسون في كتابه «سبعة أنواع من الغموض، ص 32» : «يصاغ ليبدو كما لو كان مترابطاً، والقارئ مجبر على أن يتأمل العلاقات فيه بنفسه. والأمر متروك له في أن يخلق السبب الذي يجعل الكلام مختاراً على نحو ما هو عليه. وسيختلق أسباباً عديدة وينظمها في عقله. وهذه هي الحقيقة الجوهرية في الاستخدام الشعري للغة».

سيسعى القارئ، كما أقول، إلى أن يجرّب ارتباطات عديدة. وهذا التجريب، في أبسط أشكاله وفي أكثرها تعقيداً، وفي أوضح

أنواع النظم وفي أشدها غموضاً، هو الحركة التي تعطي معناها للكلام الطليق كله.

وكلما كان الطرفان المقتربان بعيدين كان التوتر الذي يولده هذا الاقتران بالطبع أقوى. وهذا التوتر أشبه ما يكون بتوتر القوس الذي هو السبب في قوة السهم المنطلق وسرعته. ولكن ينبغي أن لا نخلط الأمور. فنتصور أن متانة القوس تعني قوة الرمية. بكلمة أخرى يجب ألاّ نخلط بين قوة الجذب وإصابة الهدف. إن الحيرة أو الإحباط تجربة سرعان ما نملّها بحق. لكننا نعرف أنّ ما يبدو ارتباطاً مستحيلاً، أو غير قابل للتنفيذ، يمكن أن يتحول فوراً إلى تماثل وتطابق مؤثرين إذا جاءت الإشارة الخفية المناسبة من بقية النص. وهاكم مثلا.

قال كاتب معاصر غير متروٍ في النظرية العامة للغة : «ترمز لفظة (بيت) في اللغة الإنجليزية إلى أنواع متعددة من البيوت. ويمكن أن تتوسع دلالتها مجازاً فتشير إلى أمور عديدة أخرى ولكن من الصعب أن تكون لها دلالة واحدة كما هو الحال في كلمة (خبز) مثلاً».

يطرح هذا النص مشكلة. جِدْ مثلاً مناسبا تستطيع أن تستخدم فيها لفظة «خبز» مجازاً لتدل على (بيت)، أو (بيت) لتدل على (خبز). ولن يكون صعباً أن تجد أمثلة أخرى. ولكن هاكم مثالاً واضحاً من قصيدة جيرار دمانلي هوبكنز الحزينة المسماة (قربان الصبي الطبّال)، إذ يتحدث الشاعر عن خبز الغربان كما لو كان مسكنا للحضور الإلهي...

وها هو البيت

واطئ الرتاج. في بيت من أوراق الضوء، ألوهيته الجليلة...

وليس في الأمر عناء بالتأكيد أن نتحدث هنا عن الرغيف على أنه بيت صغير، وما يجعل مثل هذا الربط واضحاً ويسيراً نص القصيدة بأكمله الذي يشهد على الصدق العام. إن العقل يبحث دائماً عن العلاقات والروابط، ويرشده في مسعاه هذا النص ومناسبته.

أخلص إلى القول إذن إن هؤلاء المعاصرين إذ يستغلون الفكرة الفجة عن الاستعارة بصفتها مقارنة بين أمرين، ولا يهم كثيراً ما هما، إنما يشغلون أنفسهم بقضايا جانبية في عملية التفسير ويغفلون عن الاهتمامات الأساسية للنظرية النقدية. ومع ذلك فهناك نقطة أخرى مهمة تظهر عند تأمل مثل هذه المبالغات. إذ لا ينبغي أن نحصر التفاعل بين المحمول والحامل، كما هو الحال في القرن الثامن عشر، على مجرد التشابهات بينهما. فهناك تباين أيضاً. وحيث يستخدم «هاملت» لفظة (يدبّ)، فإن قوتها لا تكمن فقط في نقاط التشابه مع الهوام وإنما، وبدرجة مساوية على الأقل، في نقاط الاختلاف التي تقاوم التأثيرات الناتجة عن التشابهات وتسيطر عليها. والمغزى من ذلك أنه لا ينبغي للإنسان أن يدبّ أصلاً. وهكذا نرى أن الحديث عن المطابقة أو الاندماج الذي تحققه الاستعارة غالباً ما يكون مضللاً وضاراً. وبشكل عام فإن الاستعارات التي لا يكون فيها التباين والاختلاف بين المحمول والحامل بالغ التأثير، كما هو الحال في التشابهات، هي قليلة جداً. إن الأساس الظاهري للتحوّل والانتقال عموماً يكمن في بعض التشابهات. غير أن التحوير المتميز الذي يصيب المحمول ويحققه الحامل، إنما هو في الغالب متأتٍ بفعل الاختلافات أكثر من التشابهات.

ولهذا كما أعتقد نتائج مهمة في النظرية الأدبية والممارسة الأدبية أيضاً، وفي أكثر من مجال. إن التحليل القاصر هنا لا يقود إلى تصوّر

مغلوط وقراءة غير سليمة وحسب، وإنما إلى محاولات في الكتابة تجعل الألفاظ تتصرّف على نحو يتعارض مع طبيعة اللغة بوصفها أداة وواسطة. فلننظر في الاعتراض الأول.

كان ت. أي. هيوم أحد أكثر النقاد المعاصرين تأثيراً. وكان موته في الحرب خسارة كبيرة لأكثر من سبب، ليس أقلها أنه ترك لنا نظرية في الاستعارة ناقصة لم تكتمل. وكان من المؤكد أنه سيسعى إلى تطويرها لو عاش. وتبدو لي هذه النظرية في وضعها الحالي مضلّلة إلى حد كبير، ولاسيما في التفسيرات التي بدت فيها غير نافعة ولامثمرة في السنوات التسع عشرة الأخيرة. وعلى وجه التحديد منذ أن نشر مقالتيه الموسومتين بـ «الفن الحديث» و«الرومانسية والكلاسيكية» في كتاب (تأملات) عام 1924.

يقول هيوم (في الصفحة 137) «إن الكلام العادي غير دقيق أساسا. ولا يمكن أن يكون دقيقا إلا باستعارات جديدة». وهذه كما ترون فكرة شيللي، ونستطيع أن نقبلها مع بعض الاعتراضات بشأن ما توحيه كلمة (جديدة). وهو اعتراض كان هيوم نفسه قد ألمح إليه في صفحة سابقة، إذ قال : «إن الأعمال الفنية ليست بيضاً ! وعليه لا تحتاج هذه إلى أن تكون طازجة أو جديدة». إلاّ أنه أضاف نقاطاً أخرى بصدد الدقة التي يفترض أن تهدف إليها الاستعارة. وهذه هي التي تسبب الأخطاء، يقول «إن الهدف الأكبر هو الوصف الدقيق والصحيح والمحدد». فالشعر، الكلام الطليق كمقابل للنثر «ليس لغة الأضداد ولكنه لغة الملموس والعيني. إنه تنازل إلى لغة الحدس التي تنقل المشاعر والأحاسيس بشكل مادي ملموس. وهي تسعى دائماً إلى لفت انتباهك وشدّك، وتريك الشيء المحسوس، وتحول دون أن تنساق وراء عملية تجريدية».

ولي ثلاثة اعتراضات على هذا القول.

الاعتراض الأول، بصدد كلمة (دائماً) في قوله «وهي تسعى دائماً... إلخ...». ويكفي أن تتذكروا شكسبير لتروا أنكم لا تستطيعون أن تقولوا إنّ لغة الشعر تفعل الشيء الذي يتحدث عنه هيوم دائماً.

أما الاعتراض الثاني فذو صلة بلفظتي (بصري ويرى) (See, Visual) في قوله «وتريك دائما الشيء المحسوس، وتحول دونك والانسياق وراء عملية تجريدية».وهذا ظاهر البطلان. تأمل الأبيات :

وددت لو أنك حملتني في قلبك

وانصرفت عن السعادة للحظة

وسحبت في هذا العالم القاسي أنفاسك.

لرد حكايتي.

فأنت لا تحتاج إلى أن (ترى) أيّ شيء في أثناء قراءتك لهذه الأبيات. ومن المؤكد أن الألفاظ نفسها لا تجعلك ترى أيّ شيء. كل ما في الأمر أنك ترى الممثلين أمامك.

أما الاعتراض الثالث فهو بصدد الخوف من التجريد. إن لغة أعظم الشعر غالباً ما تكون تجريدية إلى حد بعيد. وهي تهدف بالضبط إلى أن تجعلنا ننساق وراء عمليات وتصوّرات تجريدية.

— أهذه هي ؟ كلا هذه كريسيدا صاحبة ديومين

لو أن للجمال روحاً، فهذه ليست هي

ولو أن النفوس تحقق الإيمان، والإيمان دليل التقوى

ولو أن التقوى ترضي الآلهة.

ولو أن هناك قانوناً في وحدة الكون
فهذه ليست هي...[10].

إن شكسبير في هذه الأبيات لم يطلب منا أن (نرى) الجمال وإنما أن نفهمه عبر نمط من أنماط المناقشة المجازية بصفتها (قاعدة في الوحدة نفسها)، وأن نفهم دورها في نمو الروح.

ما الذي حدث فجعل كاتباً ألمعياً مثل هيوم يرتكب هذا الخطأ ؟ وعلى هذا النحو الفاضح ؟ لدي تفسيران متلازمان. الأول أن هيوم كان يخادع نفسه إذ يستخدم لفظة (يرى) بدلالتها الحرفية في الوقت الذي لا يمكن الإقرار بنظريته إلا إذا كانت اللفظة مستخدمة بدلالة مجازية. فمن الواضح أننا إذا استخدمنا، في معرض النقاش، عبارة مثل (أنا أرى وجهة نظرك)، فإننا نستخدم لفظة (أرى) بدلالة مجازية، وعليه ينبغي أن نفهم أن هيوم يستخدم لفظة (يرى) و(بصري) استخداماً مجازياً وإلا ليس لنظريته إلاً السقوط.

إن ما يسعى إليه أيٌّ خطاب هو أن يجعلنا نستوعب ونفهم، وأن نمتلك إحساساً مدركاً بأي شيء يمكن أن يكون هو المعنى وقد لا يكون بالضرورة شيئاً ملموساً ولكن عندما نقول (إحساس مدرك)، فينبغي أن نفهم أن هذا ليس أي إحساس بالضرورة كالذي يقدمه الإدراك الحي. ولكن قد يكون شعوراً أو فكراً. والمهم في هذا أننا يجب أن نستوعب حقا وندرك تماما الشيء، أيّاً كان.

إن الخطأ في فهم كلمة (يرى) قد يبدو فظاً لدرجة أنه لا يمكن تصور احتمال حدوثه. غير أن جهود الكثير من المعلمين الصادقين مستمرة كل يوم فيما يتعلّق بتذوّق الشعر وتقويمه، وهي تسعى لإقناع التلاميذ (والكبار أيضاً) لكي نتصور(visualize) في الوقت الذي لا

يمكن أن يكون هذا التصور(visualization) لهواً لا نفع فيه. وبين الحين والآخر تظهر كتب تشجع هذه النظرة المغلوطة إلى اللغة. إذ لا تستطيع الألفاظ، ولا ينبغي لها، (أن تنقل المشاعر والأحاسيس بشكل مادي ملموس). ذلك أن وظيفتها أهم من ذلك بكثير. فليست اللغة اللفظية تنازلاً إلى لغة الحدس، أو بديلاً شاحباً عنها ولكنها أفضل من لا شيء، لتجربة حقيقية. اللغة، إذا أحسن استعمالها، إنجاز ؛ وهي تقدم ما لا تستطيع حدوس الإحساس أن تفعله بمفردها.

والألفاظ نقاط تجمّع لحقول من التجارب لا يمكن أن تجتمع في إحساس أو حدس. وهي المناسبة والسبب لذلك النمو الذي هو مسعى العقل اللامحدود لتنظيم نفسه. لهذا السبب أصبح للإنسان لغة. إنها ليست مجرد نظام إشاري. فهي أداة تطورنا الإنساني بشكل جلي وواضح، والواسطة لكل ما يجعلنا أرفع من الحيوانات.

وهكذا، فإن الزعم بأن اللغة تعمل عبر الأحاسيس التي تعيد تركيبها يعني أن نقلب المسألة رأساً على عقب. فذلك يعني أننا نتغاضى عما هو مهم في قول مالارميه المشهور إن الشاعر لا يكتب بالأفكار، وقد نضيف ولا بالآراء أو الأحاسيس أو العقائد أو الرغبات أو المشاعر. ولكن بالكلمات. (أليست الكلمات، كما يقول كولردج، أجزاء النبتة وبراعمها ؟).

ـ وكتب كولردج أيضا : «وفي مثل هذه الحالة إنما أسعى لتحطيم التضاد القائم بين الكلمات والأشياء. أن أرفع الكلمات كما كانت، إلى مستوى الأشياء والأشياء الحية أيضاً». وقد ينبغي أن نفعل هذا لو أردنا أن ندرس الاستعارة دراسة نافعة. وينسى هيوم ومعلمو المدارس ما هو مهم جداً في اللغة إذ يتعاملون معها على أنها مجرد حافز لعملية

الصياغة التصويرية. إنهم يظنون أن الصورة تكمل معنى الكلمة. والحق أن المسألة على العكس من ذلك. فالكلمة هي التي تستجلب المعنى الذي تفتقر إليه الصورة وإدراكها الأصلي.

هذا جانب واحد، كما أظن، يفسّر اضطراب الفكر المتمثل في فهم كلمتي (يرى) و(يدرك) بدلالتهما الحرفية بدلاً من دلالتهما المجازية الواسعة والعامة. أمّا الجانب الآخر من التفسير فيمضي إلى أبعد من هذا. إنه الخطأ الذي يظن أن ما أسميته تضاد المحمول والحامل هو نفسه القائم بين الاستعارة (الوحدة المزدوجة التي تضم المحمول والحامل) من جهة ومعناها من جهة أخرى، ومن السهل الخلط بين هذين النوعين من التضاد. لأن بقاء التمييز بينهما قائماً أمر صعب، لاسيما عندما تعني الاستعارة (ومرادفاتها) بعض الأحيان الحامل فقط، وبعض الأحيان الحامل والمحمول مجتمعين. وقد بينت ذلك سابقاً.

ولا شئ يجعل هذا التحول ممكناً ويحول دون أن تنخدع به إلا الضبط والتحديد. وأظن أن هذا هو خداع هيوم وآخرين عندما قال: «إن الهدف الأكبر هو الوصف الدقيق والصحيح والمحدد». وقد نتفق معه إذا كان يريد بذلك أن على الألفاظ أن تجعلنا بشكل أو آخر مدركين تماماً وبشكل صحيح ماذا يمكن أن تعنيه. وأن على اللغة أن تصرح بمعناها. أي إن على الاستعارة (الوحدة التي تضم المحمول والحامل) أن تعني ما ينبغي أن تعنيه. إلا أن هيوم جعل ملاحظته لا تعني غير الحاجة إلى مماثلة دقيقة مفترضة بين الحامل والمحمول. وهذا باطل. «إن الكلام العادي غير دقيق أساساً ولا يمكن أن يكون دقيقاً إلاّ باستعارات جديدة... وحيث لا يكون في المماثلة ارتباط كاف بالشيء الموصوف يكفي ليكون مطابقاً له، وعندما تخفي المماثلة الشيء الذي تصفه، فهناك نوع من التطرف والمبالغة»، فالمماثلة قاصرة «ولكن عندما

يكون كل جزء من المماثلة ضرورياً لدقة الوصف... وكانت صحيحة على نحو دقيق، وحيث يكون التماثل ضرورياً لاستخراج الخط البياني الدقيق للشعور أو الشيء الذي تريد أن تعبر عنه... عندها! تبدو، كما يقول، وقد امتلكت أرفع الشعر». يفكر هيوم هنا بالاستعارة كلها وبمعناها. ومن ناحية أخرى يبدو أنه يفكر في الحامل والمحمول أيضاً. هناك شيء واضح وصحيح بشأن الاستعارة كلها ومعناها يمنح النظرة المغلوطة عن التطابق بين المحمول والحامل قبولاً وهمياً. ولا يبدو أن هيوم يميز بين هذين الزوجين. وإنه لمن الخطورة بمكان أن نخلط بينهما مثلما هو الحال في الكيمياء مثلا، إذ نخلط بين نظام تركيب الجزيء والالكترون. أو كما هو الحال في الجبر عندما نتجاهل الأقواس. إن ثقته بالبديهة التي تقول إن الكلام يعني ما ينبغي أن يعنيه جعلته (وأنا أقرأ كتابه) يوقن أن الحامل يجب أن يكون مطابقاً للمحمول. إن تمام المماثلة ضروري لاستخراج الخط البياني الدقيق [للشعور]. وهذا، كما أفهمه، ليس بديهة. وإنما هو خطأ يمكن إقامة الدليل عليه بكل سهولة ويسر. إنه وصف مغلوط لكل ممارستنا الحالية.

فمن ناحية ليس هناك تماثل كامل، ونحن نستخدمه كما نشاء وعند الحاجة وإذ نمضي بلا كياسة بالمماثلة إلى حد بعيد فإنها تتهاوى. ولا حدود للعلاقات بين المحمول والحامل كما تحاول هذه الدراسة أن تزعم.

ونتيجة لهذا الاعتقاد تبدو هذه المحاولات الحذرة المتلهفة لإعادة استنساخ المدركات والمشاعر بالألفاظ (ولنقل المشاعر والأحاسيس بشكل مادي ملموس). وليس غير النثر المعاصر في أكثر نماذجه تميزا ما يضم ذلك. والكلمات ليست أداة لإعادة استنساخ الحياة، ذلك أن وظيفتها الحقيقية هي أن تعيد النظام إلى الحياة.

ومن الخطأ التصور أن علاقة المحمول بالحامل هي نفسها العلاقة بين المحمول من جهة زائداً الحامل مجتمعين بما يدلان عليه أو يشيران إليه. وقد كان لهذا التصور المغلوط نتائج تمضي إلى أبعد ما نتصوّر على أنه من قضايا الأدب. لأنها تدخل في أساليب تصوُّرنا لمعظم قضايانا المهمة، مثل قضية الاعتقاد أو الإيمان. أينبغي أن نصدق الكلام لو كنا قد فهمناه حقاً ؟ هل لنا، لو قرأنا «الكوميديا الإلهية» أو «الإنجيل» على نحو صحيح، أن نؤمن بما يقوله هذان الكتابان على أنه صحيح وصادق ؟ وليس لنا أن نجيب عن هذه الأسئلة على نحو مرض، إلاّ إذا كنا واثقين تماماً من الأساليب والطرق التي تلجأ إليها النصوص الاستعارية لقول شيء أو إخبارنا بشيء. وكان ت. س. إيليوت يرى أن الكوميديا الإلهية استعارة واحدة كبيرة. وهي كذلك، فإذا كان الأمر على هذا النحو ... ما الذي ينبغي لنا أن نؤمن به أنؤمن بالمحمول أم الحامل ؟ أم بحضورهما المشترك ؟ أو هل لنا أن نؤمن أن المحمول والحامل ارتبطا على هذا الشكل. وليس غيره فقط ؟ وهل يقتضي الاعتقاد أو الإيمان أن يكون لدينا الاستعداد للشعور والإرادة والحياة. في بعض الجوانب، طبقاً للمعنى الحاصل، وبمقدار ما نفهم ذلك المعنى ؟ أو بالأحرى بمقدار ما يسعى ذلك المعنى إلى السيطرة علينا والإمساك بنا ؟ لقد اعتدنا أن نميّز بين فهم النصوص حرفياً وفهمها استعارياً أو تأويلياً. وفي أبسط الحالات هناك على الأقل أربعة أنماط من التفسير ينبغي أخذها بنظر الاعتبار وليس اثنين. كما أنّ أنماط الاعتقاد المناسبة ستكون كقاعدة عامة مختلفة. فنحن نستطيع أن نفرز المحمول أو الحامل فقط، ونؤمن به على أنه هو المعنى. ومن جهة أخرى يمكن أن نأخذ المحمول والحامل مجتمعين، ونتأمل، من أجل الرفض أو القبول، نوعاً من المعنى مستنداً إلى طبيعة العلاقات القائمة بينهما. وأخيراً نحن نستطيع أن نقبل أو نرفض الاتجاه الذي يقودنا إليه كل من الطرفين في حياتنا.

لسنا بحاجة إلى الذهاب إلى مدارس الإسكندرية في التفسيرات المسيحية الأولى، أو إلى التفسيرات المماثلة للأديان الأخرى، لكي نجد أمثلة على عظم النتائج التي تترتب على الاعتقاد بأي من هذه الخيارات الأربع. وتكشف عن ذلك الاحتمالات الممكنة لفهم أي من الأقاويل الاستعارية.

إن ملكة الاستعارة وهي ملكة تفسير الاستعارات، يمكن أن تمضي إلى أبعد مما نتصوّر في السيطرة على العالم الذي نصنعه لأنفسنا ونعيش فيه. لقد أرانا علماء التحليل النفسي في دراساتهم لفكرة التحول (Transference). وهي اسم آخر للاستعارة، كيف أن أنماطاً من التبجيل والحب والفعل التي تطورت بشكل دائم ضمن مجموعة من الأشياء أو الناس تنتقل إلى مجموعة أخرى. وقد أفهمونا بشكل خاص أسباب هذه التحولات وأعراضها. كما في بعض الحالات التي يكون فيها الحامل، مثل الموقف المستعار، مثل التعلق المرضيّ بأحد الأبوين، هو المسيطر على الموقف الجديد، المحمول، وعندها يكون السلوك غير مناسب. ولا يستطيع المريض في مثل هذه الأحوال أن يرى الشخص الجديد إلاّ من خلال العاطفة القديمة وأعراضها. وهو يؤول عبر الصورة المجازية، الصورة الرئيسية، أي الحامل. أما في الحالات السويّة، فإن كلاً من الحامل والمحمول ـــ العلاقات الإنسانية الجديدة والتجمع العائلي ـــ يتعاونان بحرية : ويكون السلوك الناجم مستمداً من الاثنين. وتتجسد الأنماط نفسها في الحياة الكريمة. ويمكن تجنب الوقوع في مخاطر الأخطاء كما في أية قراءة ذكية واعية. إن الشكل العام للعملية التفسيرية واحد، مثل الفهم الصحيح لمجاز لغوي ما، وهذا مثال محدود، أو السلوك الفردي، بحكم علاقة الصداقة، وهذا مثال أوسع وأشمل.

إن النموذج الأدبي أسهل في المناقشة وأيسر للبحث والدرس. وإنه لحلم قديم أن يكون علم النفس قادراً في الوقت المناسب على أن يزودنا بمعلومات كثيرة عن عقولنا. بحيث نستطيع في النهاية أن نكتشف بشيء من اليقين ماذا نعني بكلماتنا وكيف. ومقابل هذا الحلم، أو لعله مكمل له، أن نستطيع في الوقت المناسب ومع تطور علم البلاغة تطوراً كافياً، أن نعرف الكثير عن الألفاظ بحيث يمكن بواسطتها أن تعمل عقولنا. ويبدو معقولاً وعلى قدر من التواضع أن نمزج بين هذين الحلمين، وأن نأمل في أن تستطيع الأناة والمثابرة أمام المعضلات البلاغية، في أثناء كشفها عن أسباب سوء تفسير الكلمات وأنماطه، أن تلقي الضوء على علل أشد خطورة وأعمق وتقترح أيضاً بعض القواعد العلاجية. وبما أن الأخطاء الصغيرة الموضعية التي نقع فيها كل يوم نتيجة سوء فهم اللغة هي أشكال وأنماط مصغرة لأخطاء أكبر تخل بتطور شخصياتنا، فإن دراستها يمكن أن ترينا الكثير عن الكيفية التي يمكن أن نتجنب بها الوقوع في مثل هذه الكوارث.

وهذا، في الأقل، كان أمل أفلاطون مثلما كان اعتقاد سبينوزا في أن ليس للعلوم غير هدف واحد. «قبل كل شيء يجب أن نخطط لمنهج يعالج معضلة الفهم ويطهّره منذ البداية. فقد يساعد ذلك وبنجاح كبير على فهم الأشياء بشكل صحيح».

لقد بدأت المحاضرات بالزعم أن دراسة البلاغة يجب، بمعنى ما، أن تكون فلسفية. وهي تنتهي بنص من «محاورة طيماوس» إذ يتحدث أفلاطون عن هذا الأمل بأسلوب رمزي. يقول أفلاطون : «إن دورة السنين التي تمر أمامنا كشفت لنا عن الأعداد وأعطتنا فكرة عن الزمن، ومنحتنا قدرة البحث عن الكل. وعن هذا الطريق عرفنا الفلسفة. وهي الهبة التي منحتها الآلهة للإنسان الفاني. ولن يوهب الإنسان أعظم

منها ولا مثلها». وإذا شئنا أن نسيء تفسير كلمات أفلاطون لبدا لنا ما يقوله تهمة قاسية فريدة من نوعها توجه إلى الآلهة. غير أن أفلاطون عنى شيئا آخر، فهو يمضي إلى القول «وعن السمع والصوت ينطبق القول نفسه. فقد وهبتها الآلهة أيضا للإنسان، وللهدف نفسه الذي من أجله منح حاسة الإبصار. وقدِّر الكلام على الإنسان للغرض عينه. وكان نصيبه وافراً في بلوغ الغاية. ولقد وهبنا أكثر من ذلك... ذلك الجزء من الموسيقى من أجل الانسجام والتناغم. وللانسجام والتناغم دورات كدورات الروح. وقد أعطتنا ربات الفنون هذا الانسجام لكي يكون عوناً للإنسان الذي، عن طريق الفهم والإدراك، سيستخدم فنه من أجل تنظيم دورة الروح فينا التي سقطت في الفوضى واللاانسجام، وإعادتها إلى حالة من الوفاق والوئام مع نفسها، لا للحصول على المتعة غير المعقولة التي يظن بعضهم أنها هدف الموسيقى. وبالنسبة للجزء الإلهي في نفوسنا فإن الحركات المتآلفة هي أفكار الكل الشامل ودوراته. وهي ما ينبغي أن يتبعها كل إنسان لكي ينظم في رأسه الدورات التي أصابها الاضطراب عندما وُلدت الروح في الجسد. وعن طريق معرفة الائتلاف والدورات للكل الشامل، نستطيع أن نجعل ما يُفهَم مشابهاً لما هو مفهوم، كما كان الحال في البدء. وبعد أن نجعلها كذلك تبلغ حالة الكمال للحياة الفضلى التي منحتها الآلهة للإنسان الآن وفي العالم الآخر».

الملاحظات

(1) القط الفارسي : قط أنيق مستدير الرأس، والقط العتابي : قط رمادي الوبر، مخطط ومنقط بالسواد.

(2) [(لأن) هنا تمارس أكثر حيلها إزعاجا بالطبع، لتحولها من العلة السببية إلى العلة الغائية - المؤلف].

(3) الكنباث : نبات من فصيلة السرخس. وفي الكلمة تورية لا يمكن نقلها فهي أيضا ذيول الخيل Horsetails.

(4) الإدماج عند البلاغيين العرب هو أن يتضمن الكلام معنى كلام آخر. وهذا ما يقصده المؤلف بالأمثلة التي يوردها، فهي كلمات تتكون من جمع مورفيمين حرين.

(5) يقصد بالنصفين أو الطرفين الحامل والمحمول. ففي قولنا صافحت الأسد، تمثل فكرة الشجاعة المحمول، والأسد هو الحامل لهذه الفكرة.

(6) شكسبير : عطيل، ترجمة جبرا إبراهيم جبرا، دار المأمون، بغداد، 1986، ص 179.

(7) [ثمة استخدام مماثل لهذا يقول فيه : «تغرق مقاصدي في النسيان» (هنري الرابع 4،1)، حيث يزيد نهر النسيان (الليثية lethe) الصعوبة في تعقيد الاستعارة - المؤلف].

(8) تسمى في البلاغة العربية (وجه الشبه). وهو الصفة المشتركة القائمة في كل من المستعار له والمستعار منه، أو المشبه والمشبه به. وسنستخدم هذا المصطلح فيما يأتي من حديث.

(9) شكسبير : هاملت، ترجمة جبرا إبراهيم جبرا، دار المأمون، بغداد، 1986.

(10) شكسبير : ترويلوس وكريسيدا، ترجمة د. عبد الحميد يونس، دار المعارف بمصر، ص 254.

أعـلام الكتـاب

باركلي، جورج (١٦٨٥ـ١٧٥٣) أسقف إنجليزي اشتغل بالفلسفة وعرف بنظريته اللامادية في المعرفة.

باردلي، فرنيس هربت (١٨٤٦ــ ١٩٢٤) مفكر ميتافيزيقي إنكليزي، يعد استمرارا لفلسفة هيغل في بريطانيا.

برجز، روبرت سيمور (١٨٤٤ــ١٩٢٠) شاعر وناقد إنجليزي اشتهر بقصيدته الطويلة (إنجيل الجمال).

بنتام، جيرمي (١٧٤٨ــ١٨٢٢) من رواد الفلسفة النفعية في إنجلترا. كان يرى أن الكلمات المجردة لا معنى لها إلا في الواقع.

بوزانكيه، برنارد (١٨٤٨ــ١٩٢٢) فيلسوف مثالي إنجليزي، من اتباع الهيغلية.

جونسون، صموئيل (١٧٠٩ ــ ١٧٨٤) ناقد ومقالي ومعجمي إنجليزي.

جيمس، وليم (١٧٤٢ــ١٩١٠) فيلسوف وعالم نفس أمريكي، عرف بفلسفته البراجماتية (النفعية).

دن، جون (١٥٧١ــ ١٦٢١) شاعر انجليزي ميتافيزيقي. كان يكتب شعراً غزلياً في بداياته الأولى، ثمّ اتجه إلى الشعر الديني.

رايلي، جون وليم (١٩٤٢ــ ١٩١٩) فيزياوي بريطاني.

شابمان، جورج (١٥٥٩ــ ١٦٢٤) شاعر وكاتب مسرحي إنجليزي.

غلادستون، وليم (١٨٠٩ــ ١٨٩٨) سياسي انجليزي أصبح رئيساً للوزراء مرات عديدة، وكان من المحافظين.

كامس، لورد : بلاغي وناقد إنجليزي من القرن الثامن عشر، له كتاب (عناصر النقد).

كاولي، ابراهام (١٦١٨ــ ١٦٦٧) شاعر ومقالي إنجليزي

كوليرج، صموئيل بطلر (١٧٧٢ــ ١٨٢٤)، شاعر رومانسي، وناقد وفيلسوف إنجليزي، اشتهر بكتابه النقدي (سيرة ذاتية).

لسنغ، جرتهولد افرايم (١٧٢٩ــ١٧٨١) ناقد وكاتب مسرحي ألماني. له (اللاوكون)، وهو نص كلاسيكي في علم الجمال والتمييز بين الفنون، ولا سيّما الشعر والنحت.

هوبز، توماس (١٥٨٨ــ ١٦٧٩)، فيلسوف تحليلي إنجليزي، مؤلف كتاب (اللوائيان) وجوهر فلسفته السياسية أن الإنسان أناني بطبعه. وللتخلص من الأنانية يدخل الأفراد في عقد اجتماعي يخضعون بموجبه لحاكم.

واتلي، الأسقف (١٧٨٧ــ ١٧٦٢) منطقي انجليزي، يشكّل كتابه (عناصر المنطق) مرحلة فاصلة في الدراسات المنطقية في إنجلترا.

ييتس، وليم بطلر (١٨٦٥ــ ١٩٢٩) كاتب مسرحي وشاعر إيرلندي، منح جائزة نوبل للآداب عام ١٩٢٢.

كشاف المصطلحات

analogy	المماثلة
antithesis	المقابلة (الطباق)
archetypation	التنميط الأصلي
art	فن
association	التداعي، الترابط
associationism	الترابطية
assonance	الجناس
argument	المحاجة
composition	التأليف
comparison	المقارنة، الموازنة
communication	التوصيل
concret	عيني، ملموس
correctness	التصويب
context	السياق
dispargement	الاستخفاف
discourse	الخطاب
delegated efficacy	الفاعلية البديلة
doctrine of usage	مذهب الاستعمال
epigram	حكمة ساخرة
event	واقعة، حدث
extra (meaning)	فائض (المعنى)
figure	مجاز
homo phone	المتجانس الصوتي
hybrid	هجين
image	صورة
imagery	صورة فنية
imagination	خيال
interinanimation of words	تواشج الكلمات

incorrectness	خطأ (عدول عن الصواب)
interpretation	تفسير
intonation	تنغيم
ironical implication	الإدماج الساخر
ironical reserve	الاحتراس الساخر
judgement	الحكم، ملكة الحكم
lexicographer	معجمي
likeness	الشبه
literal	حرفي، حقيقي
marcroscopic	إجمالي (يهتم بالوحدات الكبرى)
meaning	المعنى
metaphor	الاستعارة
microscopic	تفصيلي (مجهري يهتم بالوحدات الصغرى)
metaphoric	استعاري، مجازي
mind	عقل
morpheme	مورفيم
persuation	إقناع
philologist	فقيه لغوي
phonetic	صوتي
prononciation	التلفظ
proper meaning superstition	خرافة المعنى الخاص
proposition	القضية الأصلية
resemblance	المشابهة
rhetoric	البلاغة
root	الجذر
shift	التغير
sorting	تصنيف
sound	صوت
tenor	المحمول
thought	فكر
utterance	القول (المنطوق)
vehicle	الحامل
wor	الكلمة

المؤلف

آيفور أرمسترونغ ريتشاردز

Ivor Armstrong Richards

*ولد ريتشاردز في قرية من أعمال مقاطعة تشيشاير في إنكلترا عام 1893، ودرس في كليتي كليفتون وماغدولين بكمبرج حيث صار زميلا.

*درس الأدب الإنجليزي في الولايات المتحدة والصين وإستقر في جامعة هارفرد (1939).

*شاعر له دواوين مطبوعة، ومسرحي له عدد من المسرحيات.

*من أشهر أعماله النقدية :

ـــ مبادئ النقد الأدبي

ـــ أسس الجماليات (بالإشتراك مع أوغدن).

ـــ العلم والشعر

ـــ النقد التطبيقي : دراسة في الحكم الأدبي

ـــ كوليرج والخيال

ـ قصائد كوليرج الصغرى

ـ أشعار

ـ معنى المعنى (بالإشتراك مع أوغدن)

ـ فلسفة البلاغة

ـ كيف نقرأ صفحة... إلخ.

المحتويات

الوصول إلى الحقيقة يتطلب إزالة العوائق
التي تعترض المعرفة، ومن أهم هذه العوائق
رواسب الجهل، وسيطرة العادة، والتبجيل المفرط
لمفكري الماضي
أن الأفكار الصحيحة يجب أن تثبت بالتجربة

روجر باكون

التعليم ليس استعدادا للحياة ، إنه الحياة ذاتها
جون ديوي
فيلسوف وعالم نفس أمريكي

فلسفة البلاغة

يحاول هذا الكتاب أن يبعث الحياة في موضوع قديم. ولست بحاجة، فيما أرى، إلى وصف الوضع الحالي للبلاغة. فهي اليوم أكثر القفار إيحاشا، وأقلها فائدة عند المبتدئ في اللغة الإنجليزية. فقد انحطت حتى صرنا نفضّل أن نطوّح بها إلى الجحيم، عن أن نكلّف أنفسنا عناءها، ما لم نجد سببا يُسعفنا على الاعتقاد بأنها يمكن أن تكون دراسةً تستجيب للحاجات الضرورية بنجاح.

وليس هناك مجال للشك في هذه الحاجات. فالبلاغة، كما سأبيّن، يجب أن تكون دراسة لحالات سوء الفهم وطرق معالجتها. ونحن في عراك مع سوء الفهم طوال حياتنا، ولسنا ندافع عن أية دراسة تصده عنا أو تزيله. بالطبع نحن لا نملك في الوقت الحاضر وسيلة نقيس بها حجم خسائرنا ومقدارها في التوصيل كلَّ حين. وسيكون هدفا من أهداف هذه المحاضرات أن تفكّر في بعض هذه الإجراءات التي لا بدّ منها في محاولة تقدير الخسائر. مامقدار اختلاف التوصيل الجيد عن التوصيل الرديئ، وبكم طريقة يختلفان؟ إن هذا السؤال كبير ومعقّد تصعب الإجابة عنه كما هو. لكن في مستطاعنا في الأقل أن نحاول عن بعض جوانبه. وستكون إجابتنا وتوضيحاتنا هي موضوع "البلاغة" الذي ننوي إحياءه.



Masson 1932,
المتحف الوطني للفن الحديث
باريس


ISBN 9981-25-205-0
9 789981 252059